الفصل الأول

ويشمل ثلاثة أبحاث:

البحث الأول: مناهج المحدثين فى القرن الأول الهجرى.

البحث الثانى: مناهج المحدثين فى القرن الثانى الهجرى.

البحث الثالث: مناهج تدوين الحديث فى القرن الثالث الهجرى.

البحث الأول:
مناهج المحدثين فى القرن الأول الهجرى
مكانة السنة

للسنة النبوية الشريفة مكانتها فى الإسلام، فهى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم، فهى المفسرة لمبهمه، المفصلة لمجمله، المقيدة لمطلقه، المخصصة لعامه، الشارحة لأحكامه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(1).

كما أتت السنة – كذلك – بأحكام لم يرد فى القرآن الكريم نص صريح عليها، كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وتحريم كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير وتحليل ميتة البحر.

وكل ما جاء فى السنة النبوية، على لسان الرسول ﷺ إنما يتبع فيه ما يوحى إليه. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(2) فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل إليهم لا يصدر فى بيانه من تلقاء نفسه وإنما يتبع ما يوحى إليه.

ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله ﷺ طاعة له، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(3).

(1) سورة النحل آية (٤٤).

(2) سورة الأنعام آية (٥٠).

(3) سورة النساء آية (٨٠).

وقد اصطفى الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام، ليبلغ الرسالة الإلهية، ويتلو على الناس آيات الله ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وأعده الله إعدادا كاملا، وأحاطه بعنايته، وكلأه برعايته وعصمه من الناس، وعلمه ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(1).

وقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بهذه الرسالة السماوية خير قيام، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه، وتحمل فى سبيلها ما تحمل، وصبر، واستعذب الأذى، حتى أرسى دعائم الدعوة، وأقام دين الله سبحانه وتعالى.

وأما بالنسبة للمسلمين، فقد أدركوا أهمية السنة، وعرفوا لها مكانتها ومنزلتها فكانوا أحرص ما يكون على حفظ القرآن والسنة، وعلى معرفة أحكام دينهم وتطبيق ما يتعلمون وما يحفظون من كتاب ربهم وسنة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، يقول أبو عبد الرحمن السلمى: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات. لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا».

كما استجاب المسلمون إلى دعوة الكتاب والسنة فى تحصيل العلم والعمل، والاقتداء برسولهم ﷺ، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(2) ولقول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» رواه البخارى وأحمد وابن ماجه.

وقد ساعدهم على الحفظ والتحصيل، ما كانوا عليه من استعداد فطرى، وذوق عربى، وذاكرة واعية أمينة، وقريحة قوية، تحفظ ما تريد حفظه بشىء منقطع النظير وواظبوا على مجالس رسول الله ﷺ لينهلوا من حديثه فيها.

كما حرصوا كذلك على أحاديثه التى يقولها فى بعض المناسبات والأحوال الأخرى، أى أنهم لم يقتصروا فقط على المجالس المعروفة فحسب وإنما على كل ما يصدر عنه عليه

---

(1) سورة النساء آية (113).

(2) سورة الأحزاب آية (21).

الصلاة والسـلام فى شـتى المناسـبات، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر برجل يبيع طعاما، فسأله كيف تبيع؟ فأخبره، فأوحى إليه أدخل يدك فيـه، فأدخل يده، فإذا هو مبلول، فقال رسـول الله ﷺ: «ليس منا من غش» رواه أحمد فى مسنده.

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يارسول الله قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس، من غش فليس منى». وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان الصحابة رضى الله عنهم يسـألون رسولهم عليه الصلاة والسلام عن الأمور الشخصية ويتعرفون على كل مـا يتصل بها من أحكام دقيقة، وكان صلوات الله وسـلامه عليه يفتح لهم باب العلم والسؤال ويقول: «إن الله عز وجل لا يستحى من الحق» رواه أحمد.

ونهج الرسـول ﷺ معهم منهـج التدرج، وكان يفتيهم فـى كل حال، فى الحل وفى الترحال، وكان يتخولهم بالموعظة كراهة السـآمة ويخاطبهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم. كما بلغ من حرصه صلوات الله وسـلامه عليه أنه كان يكرر القول ثلاثا، ويعمل علـى جذب انتباههـم ويتحرى تعليمهم فـى الأوقات الملائمة حيث تكـون العقول يقظة وواعية.

■■■

منهج الصحابة فى الرواية

التقت توجيهات الإسلام فى الحث على طلب العلم وتحصيل السنة، مع رغبة الرعيل الأول من المسلمين فى حفظها وأخذها، وفى نشرها وتبليغها، فهم على يقين بأن رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ما ينطق عن الهوى، وأن تحصيل العلم، وحفظ السنة سبيل إلى الجنة، ففى الحديث: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة..». رواه أحمد ومسلم، فلا غرابة أن يحرصوا على حفظ السنة، وفهمها وتطبيقها.

وكما حرصوا على حفظها، فقد عُنوا – كذلك – بتبليغها ونشرها، لثقتهم بأنها دين يجب أن يبلغ لكافة المسلمين، ولطالما حثهم رسولهم عليه الصلاة والسلام على تبليغ العلم ونشر السنة، فهو يقول: «نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع».

ولذا فقد اجتهد الصحابة رضى الله عنهم، فى تبليغ السنة كما سمعوها، واحتاطوا لذلك وبذلوا أقصى ما فى وسعهم من الدقة والحيطة وتحرى الصدق والصواب، والبعد عن الخطأ والاختلاف والكذب، واستجابوا للنداء الإلهى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ﴾.

بيد أن بعض الصحابة قد يتعذر عليهم حضور مجلس رسول الله ﷺ فى جميع الأوقات لما يقومون به من أمور المعاش فكانوا يتناوبون الحضور مع غيرهم، كما كان يفعل عمر رضى الله عنه قال: كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك.

كما كان البعض ممن لا يتسنى له أن يسمع من الرسول ﷺ، لقيامه ببعض أعماله فكان يطلب ما يفوته سماعه من أقرانه، وكان يتشدد على من سمع منه.

وأما بالنسبة للقبائل البعيدة، فقد كانوا يبعثون إلى النبى ﷺ من يتعلم أحكام الدين منه، ثم يعود إليهم ليوجههم ويعلمهم.

وأما عن النساء فقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعلمهن أمور الدين ويخصص وقتا يجلس لهن فيه. وكانت أمهات المؤمنين على درجة عالية من العلم؛ لذا

وجد النســاء عندهن الإجابة على أمورهن وأحوالهن التى يمنعهن الحياء من التصريح بها أمام الرسول ﷺ، كالأمور الخاصة بهن، فكان لأمهات المؤمنين دور هام فى هذا المضمار.

كما كانت هناك طرق كثيرة ســاعدت على انتشــار الســنة وتبليغها، كبعوثه ﷺ إلى القبائل، لتعليمهم وإرشادهم، وكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وخطبه وكان لغزوة الفتح أثرها فى نشر كثير من الأحاديث والأحكام.

ومــع هذه الكثرة من الأحاديث، وانتشــارها وتبليغهــا، فلم يكن هناك مجال للخلاف فى عهد النبى ﷺ، ولم يكن آنئذ خوف على الســنة، لأن الصحابة كانوا إذا ظهر بينهم خلاف فى مسألة رجعوا إلى رسولهم ﷺ، وإذا عنَّ لهم أمر من الأمور سألوه عن وجه الحق والصواب فيه، وعاشوا فى جو نقى يشرق بالصدق والأمانة.

ولكن بعد أن انتقل الرســول ﷺ إلى الرفيق الأعلى خيف على الحديث خاصة وأنه لم يدون فى كتاب، والإسلام تتسع رقعته، ويدخل فيه الكثير، فكان من الضرورى أن يتثبتوا فيما يروون وفيما يروى إليهم.

ومــن هنــا كان منهج الرواية فى عهــد الصحابة، وانبثق منهجهم مــن تعاليم الكتاب والســنة من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ومن قول رسولهم صلوات الله وســلامه عليه، «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخارى ومســلم، ومن توجيهات رسولهم ﷺ كانت قواعد التثبت التى بنوا منهجهم عليها فى الرواية.

وكان أول من وضع قوانين الرواية فيهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وسائر الصحابة، ويتلخص منهجهم فى الإقلال من الرواية مخافة الاشتغال بها والانصراف عن تلاوة القرآن الكريم، وخشية الوقوع فى الخطأ.

والإقلال من الرواية كان سيرا سليما على مارسمه لهم نبيهم عليه الصلاة والسلام حين قال: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» رواه مســلم. كما ســاروا – فى منهجهم – على طريق التثبت من الراوى والمروى.

ومن أمثلة التثبت عن الصحابة ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موســى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت، وقال

رســول الله ﷺ : إذا اســتأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ، فقال : والله لتقيمن عليه بينة» أمنكم أحد سمعه من النبى ﷺ؟ فقال أبى بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم فكنت أصغر القوم وقمت معه ، فأخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك فقال ، عمر لأبى موسى : أما إنى لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ.

وإنمــا روى عــن البعض كثير من الحديث مــع ما تبين من منهجهــم فى الإقلال من الرواية ، لكثرة ما كانوا يســألون ويســتفتون. فيجيبون ويذكرون من الأحاديث الكثير مما حفظوه تجنبا لكتمان العلم، ونشرا له ، وهداية للناس ، كما حدث بالنسبة لعبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنه حيث كان سائرا على نفس المنهج ولكن روى عنه كثير من الأحاديث.

ومن أمثلة تثبت الصحابة وحيطتهم رضى الله تعالى عنهم، ما رواه على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رســول الله ﷺ حديثا نفعنى الله بما شــاء منه. وإذا حدثنى غيره اســتحلفته ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر حدثنى وصدق أبو بكر ، أنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام قال : «ما من رجل يذنب ذنبا ، فيتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له» رواه أحمد ومسلم.

لقد دفعتهم غيرتهم على الدين ، وحيطتهم للسنة إلى التأكيد البالغ ، والدقة الفائقة ، بحيث يروى الحديث أكبر من واحد ، أو يشهد البعض مع راوى الحديث أو أن يستحلف وهكذا..

ولكن هذا لا يعنى أنهم يشترطون ذلك فى قبول الرواية ، أو للعمل بالحديث وإنما كان هــذا منهم للتأكد والحيطة والتثبت من الأحاديث التى تروى ، ليظل الناس ســائرين على هذا المنوال فى الدقة ، فلم يكن من شروطهم لقبول الخبر مثلا أن يرويه راويان أو أن يشهد مع الراوى آخر أو أن يستحلف.

ومما يدل على الاستيثاق الأكيد الحذر الشديد أن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إذا قال : «قال رســول الله ﷺ» قال : هكذا ، أو نحوا من هذا ، أو قريبا من هذا ، وكان يرتعد. ومــا ذلــك إلا لأنهم رضوان الله عليهم كانوا يتورعون عنــد ذكر الحديث مخافة النقص أو الزيــادة أو الخطأ ، وحاشــاهم أن يخطئــوا ، فقد كانوا بحق أوعية العلــم ، حفاظا للكتاب والسنة ، مطبقين لهما قولا وفعلا وسلوكا.

وهذا محمد بن ســيرين يقــول : كان أنس بن مالك قليل الحديث عن رســول الله ﷺ وقال : وكان إذا حدث عنه قال : أو كما قال.

ولم يكـن ورعهم أو حذرهم ليقلل مـن جهودهم الموفقة، فى سماع الحديث وروايته، وإنما اندفعوا إلى تحصيله وحفظه، وتبليغه ونشـره، بقلـوب مخلصة، ونفوس تواقة إلى هـذا الخير الصميم مهما كلفهم ذلك من تعب أو نصب، يقول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: لما قبض رسـول الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسـأل أصحاب رسول الله، فإنهم اليوم كثير، قال واعجبا لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك، وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك ذلك وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسـول الله عن الحديـث، فإنه كان يبلغنى الحديث عن الرجـل، فآتى بابه وهو قائل (أى نائم وقت الظهيرة) فأتوسد ردائى على بابه، تسفى الريح على من التراب، فيخرج فيقـول: يا ابن عم رسـول الله ما جاء بك؟ ألا أرسـلت إلى فآتيـك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيـك، فأسأله عن الحديث.

وكيف لايكون شـغفهم للحديث كذلك، وهم الذين اختارهم الله تعالى ليحفظوه وينقلوه إلى من بعدهم، وهم الذين عايشوا الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ورأوا بثاقب فكرهم، وعميق إيمانهم ارتباط سـعادتهم الدنيوية والأخروية به؟! وأى تراث أعلى وأغلى من هذا التراث؟! إنه الدين الذى أعزهم الله به، إنه النور الذى أضاء لهم الحياة.

ومـن أجل ذلك تمسـكوا بالسـنة، وعضوا عليها بالنواجـذ، ولم يتخلوا عنهـا فى لحظة من اللحظـات ولا لجـأوا إلى الرأى بحال من الأحوال مع وجود الحديث تشـهد بذلك الوقائع الكثيرة المأثورة عنهم، بل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول: «إياكم والرأى، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يعوها، وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا فى الدين برأيهم»[1].

وأمـا مـا جاء عن الصحابـة من الاجتهاد بالـرأى، فإنه لم يكـن إلا بعد البحث عن الحديث، فإذا لم يجدوه اجتهدوا برأيهم، فإذا جاءهم بعد ذلك حديث عن رسول الله ﷺ اتبعوه وتركوا الرأى.

عن عبدالله بن مسعود قال: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله، فإن لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض فيه نبيه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه، فإن لم يحسن فليقم ولا يستحى»[2].

---

(١) أعلام الموقعين جـ ١ ص ٤٦.

(٢) المرجع السابق.

وقد كانوا بذلك مستجيبين لأمر الله تعالى الذى وجههم إلى طاعة الرسول ﷺ وإلى التسليم لحكمه واتباعه قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

كما التزموا حدود أوامره ونواهيه، وبلغ من طاعتهم للرسول ﷺ واقتدائهم به أنهم لم يجز واحد منهم مراجعته إلا فيما يريدون أن يستفسروا عنه أو أن يعرفوا الحكمة فيه، ولم يلحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى إلا بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الحق وأدى الأمانة الإلهية ووصى المسلمين بطاعته واتباعه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة، وسيرًا على هديهما كما قال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتى». رواه الحاكم ومالك.

ولشدة حاجة الصحابة إلى السنة النبوية، ومن أجل حيطتهم البالغة، كانوا يتأكدون مما حفظوا ويراجع بعضهم الآخر، ليتذاكروا الحديث، ويتثبتوا من محفوظاتهم، ومن أجل هذا رحلوا فى سبيل العلم ونشره، وكانوا يشجعون على العلم وعلى السفر من أجله يقول عبدالله بن مسعود: «لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله تعالى منى تبلغه الإبل لأتيته»[1].

بل إنه أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرحلون من أجل الحديث الواحد، إذا بلغهم حديث ولم يسمعوه رحلوا من أجل سماعه، كما حدث لجابر بن عبدالله أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: «فابتعت بعيرا. فشددت إليه رحلى شهرا حتى قدمت الشام، فإذا عبدالله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابرا بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر ابن عبدالله؟ فقلت: نعم، فخرج فاعتنقنى، قلت: حديث بلغنى لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يحشر الله العباد أو الناس عراة غرلا بهما» «والغرل: الذين لم يختتنوا» قلنا: ما بهما؟ قال: ليس معهم شىء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد - أحسبه قال كما يسمعه من قرب: أنا الملك، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، قلت: وكيف؟ وإنما نأتى الله عراة بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات»[2].

نعم إنها الهمة العالية، والجهود المتواصلة، التى بذلت من سلفنا فى سبيل الحفاظ على سنة رسولهم صلوات الله وسلامه عليه، وما فترت هممهم فى لحظة من اللحظات، بل إنهم كانوا يخشون أن يموتوا قبل أن يصلوا إلى بعض الأحاديث التى فاتهم سماعها.

---

(١) الكفاية ص ٤٠٢.

(٢) الأدب المفرد وجامع بيان العلم وفضله.

وفـى هذه الجهود أسـوة لأبناء الإسـلام، أن يضاعفوا هممهم فـى تحصيل العلم وفى الحفاظ على تراثهم الغالى الذى بذل أسلافهم فيه قصارى جهدهم ولم يتوقفوا عن تحصيله وتعليمه حتى الموت.

كما أن فى ذلك توجيها للمسلمين بأنه لا يكبر على العلم أحد، بل عليهم أن يطلبوه من المهد إلى اللحد، وأن يرحلوا من أجله وأن يسافروا فى سبيله مهما كلفهم ذلك من جهود.

ولما كان هذا العلم دينا، وبه تكون سعادتهم فى الدنيا ونجاتهم فى الآخرة فقد احتاطوا لـه، وتثبتـوا فى نقله بما لا يدع مجالا للمجادلين بالباطل أو الذين يحاولون إثارة الشـبه حوله فقد نقله سلفنا بأدق طرق النقد العلمى النزيه.

ومما يدل على قوة تمسكهم بالسنة وتثبتهم فيها، أنهم كانوا يسافرون المسافات الواسعة من أجل التأكد من صحة ما حفظوه، لا من أجل تحصيل شـىء فاتهم فحسـب، فكانوا يتثبتون من حفظهم لدرجة بعيدة حتى إن أبا أيوب الأنصارى رحل من الحجاز إلى مصر، ليتثبت من صحة حفظه لحديث واحد، لقد سـافر إلى عقبة بن عامر، يسـأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة.

فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى - وهو أمير مصر - فأخبره فعجل عليه، خرج إليه فعانقه، ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ. لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله.

فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة فعجل فخرج إليه فعانقه، فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغيرك فى سـتر المؤمن، قال عقبة: نعم سمعت رسـول الله ﷺ يقول: من سـتر مؤمنا على خزية (وهى الشىء الذى يستحيا منه) ستره الله يوم القيامة، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعا إلى المدينة[1].

إنها العقيدة الإسلامية الصحيحة، التى غرسها الإسلام فى قلوبهم، وإنها حلاوة الإيمان التى خالطت دماءهم فحفظوا مصادر الدين عقلا وقلبا وروحا وطبقوا تعاليمه وعملوا بما علموا.

(١) جامع بيان العلم.

ولقد كانوا بهذا الإخلاص، وتلك الجهود حفاظا للشريعة، وحراسا أمناء، صانوها من انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. فهم بحق عدول هذه الأمة، وخلفاء الرسول ﷺ.

وكيف لا، وعلم الحديث الذى حمله هو أجلُّ العلوم وأشرفها، به النجاة والهدى والفوز والفلاح، وكما قال القائل:

دين النبى وشرعه أخباره   وأجل علم يقينى آثاره
من كان مشتغلا بها وبنورها   بين البرية لا عفت آثاره

واشتمل منهج الصحابة فى الرواية، على منع الرواة أن يحدثوا العامة بما يعلو على فهمهم. مما قد يترتب عليه فتنتهم أو تكذيبهم لمن يحدثهم، وقد ساروا فى هذا على ما رسمه لهم رسولهم صلوات الله وسلامه عليه، إذ كان يمنعهم من أن يحدثوا العامة بما لم يفهموه خشية أن يفتنوا، أو يكذبوا.

وحتى لو افترضنا أنهم لم يكذبوا، وعملوا بما سمعوه، فربما يتركون بعض الأحكام لعدم معرفتهم بها، وهضمهم لها، بل قد يكون فى تحديثهم مدعاة للشك والارتياب، والبعد عن الصواب.

ولقد كانت توجيهات الرسول ﷺ للصحابة ألا يخبروا أو يحدثوا الناس بما يعلو على فهمهم خشية أن يتركوا العمل فيما إذا حدثهم بحديث فيه بشرى، كحديث معاذ، الذى رواه البخارى فى صحيحه، قال ﷺ: «يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال يا معاذ قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار، قال يا رسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا: قال: إذا يتكلوا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثما: أى خشية الوقوع فى الإثم بسبب كتمان العلم.

فى هذا دليل على أن المتشابه لا ينبغى أن يذكر عند العامة، يقول على رضى الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟ ومعنى قوله: «بما يعرفون».أى يفهمون وفى رواية: «ودعوا ما يفكرون» أى ما يشتبه عليهم فهمه.

ومثل هذا أيضا قول ابن مسعود – رضى الله تعالى عنه – «ما أنت بمحدث قوما حديثا، لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره فى الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب.

وإذا نظرنا إلى حديث معاذ وجدنا ظاهره يقتضى عدم دخول جميع من شهد الشهادتين النار، لما فيه من العموم، ولكن الأدلة القطعية عند أهل السنة تدل على أن طائفة من عصاة المؤمنين يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة، فعلم أن ظاهره غير مراد وإنما هو مقيد بمن تاب وعمل الأعمال الصالحة.

وفيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه، ما يفيد أن رسول الله ﷺ أذن لأبى هريرة أن يبشر بالجنة من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فرده عمر، وقال لرسول الله ﷺ: «فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون قال رسول الله ﷺ: فخلهم» وهذا معدود من موافقات عمر رضى الله عنه.

وفى رواية البزار - أيضا - بإسناد حسن، أن النبى ﷺ أذن لمعاذ فى التبشير، فلقيه عمر. فقال: لا تعجل، ثم دخل فقال: يا نبى الله أنت أفضل رأيا. إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها، قال: فرده.

وقد استنبط الأئمة من هذا جواز إمساك بعض العلوم التى لا حاجة إليها للمصلحة، أو خوف المفسدة، وكراهية رواية مافيه من إثارة للفتن بسبب عدم فهم البعض له، أو استغلال أصحاب الأهواء لظواهر النصوص.

ولطالما تعلل بعض أصحاب الأهواء بظواهر بعض النصوص فتحللوا من بعض الأحكام، عن قصد أو غير قصد، فمن أجل ذلك أمسك الصحابة عن رواية ما يكون ذريعة لمثل ذلك عند بعض الناس.

وفيما رواه البخارى عن أبى هريرة قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم، وحمل العلماء ما لم يذعه وينشره على ما كان فيه أسماء حكام السوء وأحوالهم وزمنهم، أو أنه ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال فى آخر الزمان فينكر ذلك من لم يفهمه، ويعترض عليه من لاشعور له به.

ولقد نهج الصحابة على رواية وتعليم ما وضح من المسائل ثم يتدرجون إلى ما دق منها ويحتاطون فى عدم رواية ما يعلو على فهم العامة. قال ابن عباس: كونوا ربانيين حلماء فقهاء علماء، ويقال: الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره.

والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دق منها. فهم يتدرجون من الصغير إلى الكبير ومن الواضح إلى الدقيق، وللمحدثين بهذا فضل السبق فى أمثل الطرق التربوية الناجحة. وهكذا يتلخص منهج الصحابة فى الرواية بالإقلال منها، وبالتثبت البالغ، والحيطة التامة وبعدم التحدث بما يعلو على فهم العامة.

■■■

كتابـــة السنـــة
فى العهد النبوى

تلقف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، سنة رسول الله ﷺ، فحفظوها وفهموها وعملوا بها وطبقوها، هذا إلى جانب موقفهم العظيم من كتاب الله تعالى حفظا وفهما وتطبيقا، وقد كانوا فى أول العهد لا يكتب الحديث منهم إلا القليل؛ مخافة اختلاط القرآن بالسنة.

بـل وردت بعـض الأحاديث تنهى عن الكتابة من ذلك ما رواه أبو سـعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه»[١].

وهذا النهى عن كتابة الحديث، لا يتعارض مع ما ثبت من كتابة البعض فى ذلك العهد إذ إن النهـى كان فى بدء الدعوة، خشـية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس، أو أن النهى كان فى حق من يوثق بحفظه، وخيف اتكاله على الكتابة.

وأما من لايوثق بحفظه، فقد أذن له بالكتابة، كما حدث لأبى شاه، وهو من أهل اليمن، فحين سمع خطبة الرسـول ﷺ، قال: اكتب لى يارسـول الله، فقال اكتبوا لأبى شاه[٢].

وأيضـا فإن النهـى – وإن كان عاما – فإنه قد سمح بالكتابـة لمن كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال بين السنة والكتاب كعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، يقول أبو هريرة رضى الله عنه: ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[٣].

وكان للنهـى عن كتابة الحديث فى بادئ الأمر ثمرة عظيمة، هى اتسـاع المجال أمام القـرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة، ويثبت فى صدور الحفاظ، أو أن النهى كان خاصـا بكتابة الحديث مع القـرآن فى صحيفة واحدة وأن الإذن كان فى تفريقهما، أو أن النهى كان متقدما، فالإذن بالكتابة ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهذا أقرب الآراء.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه البخارى.

والذى نراه أن النهى عن الكتابة كان عامًا فى بادئ الأمر، وخص الرسول ﷺ بعض الصحابة بالإذن فى الكتابة لأسباب منها: أن البعض لا يوثق بحفظه كأبى شاه، ومنها أن البعض كان كاتبا مجيدا، لا يلتبس عليه الحال كعبدالله بن عمرو ابن العاص، روى الإمام أبو داود بسنده عن عبدالله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش، وقالوا: أتكتب كل شىء ورسول الله ﷺ بشر، يتكلم فى الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بيده إلى فيه فقال: «اكتب فو الذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]

وأما نسخ أحاديث الإذن بالكتابة لأحاديث النهى عنها ففيه تدرج معهم انتهى بالإذن العام بالكتابة، فبعد أن كان النهى عاما عن كتابة الحديث، أذن للبعض بالكتابة، ثم نسخ النهى بعد ذلك. وانتهى الأمر إلى جواز الكتابة حيث نزل أكثر الوحى وحفظه الكثيرون، وأمن اختلافه بسواه، قال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب»[2]،

وهكذا لما كثرت السنن، وخيف عليها أن تضيع من البعض، كان الإذن بالكتابة ناسخا لما تقدم من النهى، ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث مأذون فيها، ومما يقوى ذلك أن الأحاديث التى ورد فيها الإذن بالكتابة متأخرة التاريخ، فمثلا أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أسلم عام سبع، وأبو شاه كانت قصته فى السنة الثامنة عام الفتح. ومما روى - أيضا - فى الإذن بالكتابة ما أخرجه الترمذى - بسنده - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ، فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: استعن بيمينك وأومأ بيده إلى الخط».

وتحدثنا الأخبار الصحيحة، وتطالعنا المراجع الأصيلة بكتابة كثير من الأحاديث فى كثير من الصحف، فمن ذلك الكتاب الذى دُوِّن فى السنة الأولى الهجرية يتضمن حقوق المهاجرين والأنصار وأهل المدينة، ثم ما كتبه أبو بكر لأنس بن مالك من كتاب فيه ما فرضه

(١) سورة النجم الآيات: (٣، ٤).

(٢) جامع بيان العلم.

رسـول الله ﷺ من الصدقات، وكان ممهورا بخاتمـه ﷺ وكانت توجد بعض الكتب التى فيها كثير من الأحاديث عند بعض الصحابة من أمثال: سعد بن عبادة، وأسماء بنت عميس وأبى هريرة وغيرهم.

وأخيرا فقد استقر الأمر، وانعقد الإجماع على جواز الكتابة بل على استحبابها بل لا يبعد وجوبها على من خاف النسـيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم، كما ذكر الحافظ ابن حجر، وسـنذكر بمشـيئة الله تعالى وتوفيقه أهم الصحف التى دونت فى العهد النبوى؛ لنـرى أن مناهج المحدثين كانت متصلة الإسـناد رواية وكتابة، وأن السـنة المطهرة من لدن صدورها من الرسـول ﷺ قـد أخذت طريقها إلى القلوب عن طريق الكلمة المسـطورة والمحفوظة، وأن الله تعالى قد قيض لها من أسباب التوفيق ما لم يحدث له نظير أبدا فى تاريخ البشر.

■■■

أشهر الصحف المدونة
فى العهد النبوى

من أشهر الصحف التى دونت وكتبت فى العهد النبوى، صحيفة عبدالله بن عمرو ابن العاص، ولهذه الصحيفة أهمية علمية بالغة؛ إذ إنها تعتبر من أهم الوثائق التاريخية للدلالة على كتابة الحديث بين يدى رسول الله ﷺ بإذنه، فقد كان ابن عمرو أول من كتب الحديث بين يدى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ويزيد من أهمية هذه الصحيفة ما ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» من أنها تضم ألف حديث، وأن صاحبها متقدم الإسلام، وقد توفر له أسباب التحمل وكثرة الرواية ما لم يتوفر لغيره.

ولذا فقد جمع بين حفظ الحديث فى قلبه، وكتابته فى الصحف، يقول أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله ﷺ منى إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» رواه البخارى. ولكثرة ما حفظ عبدالله بن عمرو وما تحمل، فقد كان الكثير من الصحابة رضى الله عنهم يحرصون على السماع منه والأخذ عنه، قالت عائشة رضى الله عنها لعروة بن الزبير: يا ابن أختى بلغنى أن عبدالله بن عمرو مار بنا إلى الحج فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبى ﷺ علما كثيرا.

وترجع كتابة عبدالله بن عمرو للحديث إلى إذن رسول الله ﷺ له فى الكتابة، فقد كان يحسن الكتابة ولا يلتبس عليه شىء، وفيما رواه ابن سعد عن عبدالله ابن عمرو أنه قال: استأذنت النبى ﷺ فى كتابة ما سمعت منه فأذن لى فكتبته، فكان عبدالله يسمى صحيفته تلك الصادقة.

وسبب تسمية هذه الصحيفة بالصادقة، أنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة، قال مجاهد: رأيت عند عبدالله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال: «هذه الصادقة فيها ماسمعت من رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه فيها أحد» رواه ابن سعد. وقد كان عبدالله يروى ويملى الحديث، ولم تتحدث المصادر عن

المنهج الذى كان يسير عليه فى إملائه، ولكن المعروف عنه وعن غيره من الصحابة أنهم كانوا فى غاية التثبت لما يروون سواء كان من الحفظ أم كان من الصحيفة الصادقة أم كان من غيرها ومثل ذلك إملاؤهم.

ولكن عبدالله بن عمرو كان يعتز بالصحيفة الصادقة، لأنه أخذها وكتبها عن رسول الله ﷺ ليس بينه وبين رسول الله ﷺ أحد، وكان يقول: ما يرغبنى فى الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوهط، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن الرسول ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها.

وكان عبدالله بن عمرو يملى الأحاديث على تلاميذه ومن يتلقون عنه السنة كما كان محافظا على صحيفته، ويوليها أكبر العناية والصيانة خشية الضياع، وقد حفظ أهله من بعده هذه الصحيفة، وكان حفيده عمرو بن شعيب يحدث منها.

ومع كثرة ما تحمل عبدالله بن عمرو، ومع أنه كان يكتب الحديث، وأبو هريرة لا يكتب، مع هذا نرى أن ما رواه أبو هريرة أضعاف ما رواه ابن عمرو، مع أن الذى كان من المنتظر والمحتمل أن يكون العكس؟

هذه حقيقة، ولكننا إذا عرفنا أن ابن عمرو كان اشتغاله بالعبادة أكثر من التعليم، وأنه أقام بعد الفتوح فى مصر أو الطائف بينما كان أبو هريرة فى المدينة، يتصدر للتحديث هذا إلى جانب ما حظى به أبو هريرة من دعوة رسول الله ﷺ له ألا ينسى، إذا عرفنا هذا، وقفنا على السبب فى كثرة مرويات أبى هريرة عن ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما.

وكان لجابر بن عبدالله الأنصارى صحيفة مشهورة، وقد روى أبو الزبير وأبو سفيان والشعبى عن جابر، وكان أكثر ما رووه من الصحيفة.

ويعتبر جابر بن عبدالله من الصحابة المكثرين من رواية الحديث، وقد روى عن رسول الله ﷺ ولازمه فى كل غزواته، وشهد رضى الله عنه عصر كبار الصحابة، وأكثر من تحمل الحديث وروايته، وكانت له حلقة فى المسجد النبوى تشع هدى وعلما. ويؤخذ عنه فيها من العلم ومن الأحاديث الشىء الكثير.

وأتاحت له حياته التى امتدت به أربعة وستين عاما بعد الرسول ﷺ أن يكثر من تحمل الحديث وروايته حتى روى له ألف وخمسمائة وأربعون حديثا.

وكان لهمام بن منبه صحيفة، كتبها عن أبى هريرة ورواها عنه مَعْمر ورواها الرواة عن عصر معمر وأجلهم إمام أهل اليمن عبد الرزاق بن همام وأجل من رواها عنه إمام أهل السنة وأمير المؤمنين فى الحديث الإمام أحمد بن حنبل وساقها فى مسنده بإسناد واحد فى موضع واحد.

وتعتبر صحيفة همام من أوائل ما كتب من الحديث، وبكتابة همام لها كانت تأليفا مستقلا، وقد كتبها همام عن أبى هريرة مباشرة فى حياته وأبو هريرة توفى سنة ثمان وخمسين، وهمام ولد قبيل سنة أربعين وفى هذا دلالة على تدوين السنة فى وقت متقدم، فتدوين هذه الصحيفة قبل وفاة أبى هريرة، وذلك فى النصف الأول من القرن الأول.

وإنما كان لهذه الصحيفة أهميتها البالغة، ومكانتها الخاصة، فى تدوين السنة لأنها وصلت كاملة غير منقوصة، ورواها همام ودونها عن أبى هريرة تامة فكانت حرية بما أطلق عليها من اسم: «الصحيفة الصحيحة» ومما يؤكد الثقة بها أن جميع أحاديثها قد جاءت فى مسند الإمام أحمد بن حنبل وأن كثيرا منها فى الصحيحين والبعض ليس فى الصحيحين، وهذا يدل على أن البخارى ومسلما لم يستوعبا جميع الأحاديث الصحيحة.

وبهذا يتضح لنا كتابة السنة فى القرن الأول، لأن أهل القرون الأولى هم حلقة الاتصال بالسنة لمن بعدهم، من أهل القرون التالية، الذين انتقلت على أيديهم السنة، وأهل القرن الأول. وإن كانت الأحاديث التى كتبوها يظن أنها قليلة إلا أنها صحيحة كلها لا يدخلها شك فهم عدول، وهم خير القرون.

وما من شك فيما كانوا عليه فى العهد الأول من المنزلة العالية فى الحفظ والضبط وليس هذا غريبا على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قمما عالية فى الحفظ والإتقان، ومع هذا فقد كتب بعضهم السنة، فكان وصولها إلى القرون التالية شفاهة وتحريرا، وهذا أدق وأوثق وأحوط، يقول ابن الصلاح «ولولا تدوينه – أى الحديث – فى الكتب لدرس فى الأعصر الأخر».

■■■

مدارس الحديث النبوى
فى القرن الأول الهجرى

شاء الله تعالى للفتوح الإسلامية أن تتوالى وأن تتسع، تم فتح الشام والعراق سنة سبع عشرة من الهجرة وتم فتح مصر سنة عشرين وفارس سنة إحدى وعشرين وسمرقند سنة ست وخمسين، ودخل الكثير من أهل هذه البلاد فى الإسلام فأرسل الخلفاء إليهم من الصحابة من يعلمهم ويفقههم، ومن الصحابة من رحل إلى تلك الأقطار معلما وموجها ومنهم من استوطن هناك حتى توفى.

وفى كل قطر إسلامى نزل فيه الصحابة كان يلتف حولهم طلاب العلم والحديث فتخرج على أيديهم فى كل مكان طبقة من التابعين كونوا مدارس للحديث النبوى، لم تكن على ما نحن عليه الآن ولكنها فى بساطتها كانت أكثر تحصيلا وتطبيقا، وإشراقا ونورا.

وكانت المساجد آنئذ هى ملتقى شيوخهم. يجتمعون بهم ويحدثونهم ويفقهونهم. حتى نهض فى كل قطر جيل من التابعين كانوا حماة للسنة، وحملة لمشاعل النور والهداية ولنذكر فيما يلى نبذة سريعة عن كل مدرسة من مدارس الحديث النبوى فى ذلك العهد العظيم.

مدرسة الحديث بالمدينة المنورة:

المدينة المنورة هى دار الهجرة، وموطن الأنصار الذين ضرب القرآن بهم المثل فى الإيثار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وفى المدينة المنورة تكونت الدولة الإسلامية، وتمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقويت الأمة الإسلامية، ومنها انطلقت قوى الإسلام منتصرة فاتحة، وفيها نزل أكثر التشريع الإسلامى وحدث الرسول ﷺ أكثر حديثه.

وظلت المدينة المنورة محط أنظار المسلمين، وعاصمة الخلافة ومركز الأمة يفضل الصحابة الإقامة فيها حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ فلا يبرحونها إلا لحاجة ملحة، كل ذلك كان التماسا لبركة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وحبا له وتمسكا بسنته فى

حياته وبعد وفاته، روى ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر أنه قال: لا نعلم أحدا من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة - يعنى بعد وفاة النبى ﷺ - فنزلها غير أبى سبرة فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبى ﷺ فنزلها فكره ذلك له المسلمون وولده ينكرون ذلك ويدفعون أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها، ويغضبون من ذكر ذلك[1].

ولقد كان فى المدينة المنورة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من عرف بالحديث والفقه وكان لهؤلاء الصحابة قدم راسخة حتى اشتهروا بالحديث والفقه، فمن هؤلاء أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وعبدالله بن عمر وأبو سعيد الخدرى وزيد بن ثابت، وعرف زيد باستنباط الأحكام من الكتاب والسنة وكان عمر يستأنس برأيه فى القضايا، وعلى أيدى هؤلاء الصحابة الأجلاء قامت نهضة مدرسة الحديث فى المدينة المنورة، وعلى أيديهم تخرج الرعيل الأول من التابعين بالمدينة ومن أشهرهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام وابن شهاب الزهرى، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبدالله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، ونافع مولى ابن عمر وغير هؤلاء ممن عنوا بالسنة وحفظها.

مدرسة الحديث بمكة المكرمة:

امتازت مكة المكرمة بمكانتها الروحية، فهى البلد الحرام، وفيها بيت الله الحرام «الكعبة المشرفة»، وإليها تتجه الوجوه فى كل صلاة فهى قبلة المسلمين، وفيها يلتقى المسلمون من شتى الأقطار يمثلون أكبر مؤتمر إسلامى فى الحج، لهذا كله تمتعت مدرسة الحديث فى مكة بخصائص جعلتها تمتاز هى والمدينة المنورة على جميع بلاد العالم، فى نشر العلوم والمعارف، وفى رواية الحديث والعناية بالأسانيد وتنقيح المرويات.

وقد كان رائد هذه المدرسة هو معاذ بن جبل أفضل الشباب علما، وأعلم الصحابة بالحلال والحرام، لقد خلفه الرسول ﷺ بعد الفتح فى مكة المكرمة ليعلم أهلها ويقرئهم كتاب الله ويفقههم فى الدين.

ثم آلت زعامة دار الحديث فى مكة المكرمة إلى عبدالله بن عباس، وذلك بعد أن رجع من البصرة، وكان رضى الله عنه من حفاظ الحديث وعلى يديه تخرج كثير من علماء

---

(١) الحديث والمحدثون د. محمد أبو زهو.

التابعين من أشهرهم مجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم، وإليه يرجع الفضل فيما تميزت به مكة المكرمة من شهرة علمية، فقد خلف عبد الله بن عباس رضى الله عنه ثروة علمية هائلة من الأحاديث النبوية الشريفة، والآراء الاجتهادية القيمة، والتف حوله أتباع ومريدون أخذوا منه ورووا عنه، واغترفوا من فيض علمه وفقهه مما دفع بمدرسة الحديث فى مكة إلى الأمام وجعلها تزدهر بالحياة العلمية والنهضة الحديثية.

مدرسة الحديث بالكوفة:

نزل بالكوفة كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أيام الفتوح ومكث بها عدد كبير ودفنوا بها منهم: على وعبدالله بن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وخباب بن الأرت وسلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وأبو موسى الأشعرى والبراء بن عازب والمغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير وأبو الطفيل وغيرهم[١].

ولقد كانت الكوفة قاعدة الجيوش الإسلامية، فلذا نزل بها عدد كبير منهم، وكانت قيادة دار الحديث بالكوفة لعبدالله بن مسعود، فقد كان معروفا بكثرة علمه وطول إقامته بها، وعلى يديه تخرج الكثير من أصحابه من أمثال مسروق بن الأجدع المهمدانى وعبيدة ابن عمرو السلمانى الذى قال فيه الشعبى: كان يوازى شريحا فى القضاء. والأسود بن يزيد النخعى، وشريح بن الحارث الكندى، وإبراهيم بن يزيد النخعى فقيه العراق وسعيد بن جبير وعامر بن شرحبيل الشعبى علامة التابعين.

مدرسة الحديث بالبصرة:

نزل البصرة كثير من الصحابة رضوان الله عليهم منهم: أنس بن مالك وابن عباس وعمران ابن حصين، ومعقل بن يسار، وعبدالله بن الشخير وغير هؤلاء. وتزعم دار الحديث بالبصرة أنس بن مالك رضى الله عنه وتخرج فى مدرسة الحديث بالبصرة من التابعين أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى، والحسن البصرى، وأدرك خمسمائة من الصحابة ومحمد بن سيرين.

(١) الحديث والمحدثون، علوم الحديث.

مدرسة الحديث بالشام:

شاء الله تعالى للمسلمين أن يفتحوا الشام، فدخل كثير من أهل الشام فى الإسلام، وكانت عناية الخلفاء بالشام عناية فائقة فبعثوا بفضلاء الصحابة إلى الشام ليعلموا الناس ويفقهوهم، يقول أبو مسلم الخولانى: دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلا من أصحاب النبى ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين. براق الثنايا ساكت لا يتكلم، فإذا امترى القوم فى شىء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لى: من هذا؟ قال: معاذ بن جبل. ومن الصحابة الذين قاموا بالتعليم فى الشام: عبادة بن الصامت وكان أفقه الناس فى الدين، وأبو الدرداء وكان من فقهاء الصحابة، وحفاظ الحديث، وانتشر فى الشام كثير من الصحابة غير هؤلاء، وعلى هديهم وعلمهم تخرج جيل من فضلاء التابعين منهم أبو إدريس الخولانى، ورجاء بن حيوة.

مدرسة الحديث بمصر:

نزل كثير من صحابة رسول الله ﷺ مصر، بعد الفتح الإسلامى، وأشهر الصحابة عبدالله بن عمرو بن العاص الذى كان من أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله ﷺ، حيث كان يمتاز عن غيره بكتابة ما يسمعه من الرسول ﷺ، كما نزل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وخارجة بن جذافة وعبدالله بن سعد ابن أبى سرح ومعاذ بن أنس الجهنى وغيرهم.

وتعلم على أيدى هؤلاء الصحابة كثير من أهل البلاد وتخرج عليهم كثير من التابعين منهم أبو الخير مرثد بن عبدالله اليزنى مفتى أهل مصر، ومنهم يزيد بن أبى حبيب.

وهكذا نرى أن الصحابة رضوان الله عليهم قد انتشروا فى الأقطار تبعا لاتساع الفتوح الإسلامية، لينشروا أحكام الإسلام وسنة الرسول ﷺ، وكان لزاما على أئمة الحديث بعد ذلك أن يتتبعوا السنة ليجمعوها من سائر الأقطار المختلفة التى انتشر فيها الصحابة وكان طريقهم فى هذا إنما «هو الرحلة» فى طلب السنة، فشمروا عن ساعد الجد، ورحلوا المسافات الواسعة، وربما قام الواحد منهم برحلات عديدة حتى كان ينسب إلى أكثر من بلد فيقال عنه: المكى ثم المدنى ثم الشامى ثم المصرى وهكذا، إشارة إلى أنه رحل إلى تلك البلاد المتعددة طلبا للحديث الشريف.

الصحابة المكثرون فى رواية الحديث

ومــن بــين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من اشــتهر بالكثرة فــى رواية الحديث، واصطلح علماء الحديث على أن من روى أكثر من ألف حديث يعد من المكثرين، وقد ذكر العلماء ســبعة من أصحاب رســول الله ﷺ عدوهم من المكثرين وســنتناول التحدث عنهم بإيجاز وهم: أبو هريرة، وعبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، والسيدة عائشة، وعبدالله بن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدرى.

١- أبو هريرة

هو راوية الإسلام وأول المكثرين لرواية السنة النبوية، عبد الرحمن بن صخر، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس بن صخر، فلما أســلم سماه رســول الله ﷺ عبد الرحمن، وكنى بأبــى هريرة، لأنه كان يرعى الغنم ومعه هــرة صغيرة يعطف عليها ويرفق بها ويصحبها. قدم أبو هريرة رضى الله عنه على رسول الله ﷺ عام خيبر وذلك فى سنة سبع من الهجرة فى شــهر المحرم وأســلم، وكان عمره آنذاك نحوا من ثلاثين ســنة. وكان أبو هريرة رضى الله عنه أحفظ من روى الحديث. وقد وهبه الله تعالى ذاكرة قوية واختاره لحفظ أكبر ثروة طائلة من الحديث النبوى.

وقد تهيأ لحفظ تلك الثروة الهائلة من الســنة بفضل مواظبته على حضور مجالس النبى ﷺ. يقــول أبو هريرة رضى الله عنه: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبى ﷺ إنى كنت امرءا مســكينا صحبت النبى ﷺ على ملء بطنى وكان المهاجرون يشــغلهم الصفق فى الأســواق وكانت الأنصار يشــغلهم القيام على أموالهــم فحضرت من النبى ﷺ مجلســا فقال: من بســط رداءه حتى أقضى مقالتى ثم يقبضه إليه فلن ينســى شيئا سمعه منى؟ فبســطت بردة على حتى قضى حديثه ثم قبضتها إلى، فوالذى نفسى بيده ما نسيت منه شيئا بعد»[١].

وإلى جانــب محافظتــه على حضور مجالس النبى ﷺ فقــد كان ذا رغبة قوية فى العلم، حتى حظى بدعوة الرســول صلوات الله وســلامه عليه بالحفظ وعدم النسيان،

(١) رواه الشيخان.

فمع أنه لم تطل صحبته بالرسـول ﷺ ولم تتجاوز ثلاث سـنين فإنه كان أكثر الصحابة رواية للحديث روى أن رجلا جاء إلى زيد بن ثابت فسأله عن شيء فقال: عليك أبا هريرة فإنـي بينمـا أنا جالس وأبو هريرة وفلان فى المسـجد ذات يوم ندعوا الله ونذكره إذ خرج علينا النبى ﷺ حتى جلس إلينا، فسكتنا، فقال: عودوا للذى كنتم فيه، قال زيد فدعوت أنـا وصاحبى قبل أبى هريرة وجعل رسـول الله ﷺ يؤمن علـى دعائنا. ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إنى أسـألك ما سـألك صاحباى وأسألك علما لا ينسى، فقال رسول الله ﷺ: آمين، فقلنا: يارسول الله، ونحن نسأل الله تعالى علما لا ينسى، فقال: سبقكم بها الغلام الدوسى(١).

وإلى جانب هذا فقد مد الله فى عمر أبى هريرة فعاش سبعة وأربعين عاما بعد وفاة رسول الله ﷺ... وأدرك أبو هريرة أيضا كبار الصحابة رضى الله عنهم وأخذ منهم وروى عنهم. كمـا روى كثير من الصحابة عن أبـى هريرة، قال البخارى: روى عن أبى هريرة نحو من ثمانمائـة رجل من أهل العلم من الصحابـة والتابعين وغيرهم. وعدد ما رواه أبو هريرة من الآحاديث خمسـة آلاف وثلاث مائة وأربعة وسبعون حديثا، اتفق الشيخان على ثلاثمائة وخمسة وعشرين وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين ومسلم بمائة وتسعة وثمانين.

٢- عبدالله بن عمر

هـو عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل العدوى، وأمه زينب بنت مظعون بن حبيب الجمحـى أخـت عثمان بن مظعون، ولد فى السـنة الثانية أو الثالثة من المبعث، وأسـلم قديما وهو صغير، وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. وشهد من بعده اليرموك وفتح مصر وإفريقيا، روى عن رسول الله ﷺ وعن أبيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعمه زيد وأخته حفصة أم المؤمنين وأبى بكر وعثمان وعلى. وروى عنه من الصحابة ابـن عباس وجابر.. ومن التابعين أولاده الأربعة بلال وحمزة وسـالم وعبدالله ومولاه نافع وأسلم مولى عمر. وقد أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة، وكانت الوفود تقدم عليه.

وكان لتقدم إسلامه، وزهده فى الدنيا وفى الإمارة، واتصاله برسول الله ﷺ، كان لكل هذا أكبر الأثر فى كثرة أحاديثه.

---

(١) رواه النسائى.

وهـو أحـد العبادلة الأربعة الذين اشـتهروا بالإفتاء وكل واحد منهم يسـمى عبدالله، والثلاثـة الباقـون هم عبدالله بن عبـاس وعبدالله بن عمرو بن العـاص وعبدالله بن الزبير وهو يلى أبا هريرة فى كثرة أحاديثه، وعدد مروياته ٢٦٣٠ حديثا ثلاثون وسـتمائة وألفان حديث، وأصح الأسـانيد عنه تلك السلسـلة المشـهورة المعروفة بالسلسـلة الذهبية وهى: مالك عن نافع عن ابن عمر، وعد بعض العلماء هذه السلسلة أصح الأسانيد على الإطلاق، وأضعفها محمد بن عبدالله بن القاسم عن أبيه عن جده عنه.

وكانت وفاة عبدالله بن عمر سنة ثلاث وسبعين من الهجرة.

٣- أنس بن مالك

هو الصحابى الجليل أنس بن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى البخارى وقد جاءت به أمه أم سـليم إلى رسـول الله ﷺ وهو ابن عشر سنين ليخدمه. فكان نعم الخادم الأمين لرسول الله ﷺ، ونشأ أنس فى بيت النبوة نشأة طاهرة مباركة، شاهد فيها ما لم يشاهده غيره من أحوال رسـول الله ﷺ وأفعاله. وقد سعد بمعاملته الكريمة له، يقول: لم يسألنى رسول الله ﷺ عن شىء فعلته لم فعلته؟ولا عن شىء تركته لم تركته؟

ولم يحضر أنس غزوة بدر الكبرى لصغر سنه، ولكنه شهد كثيرا من الغزوات بعد ذلك.
وقال أبو هريرة عنه: مارأيت أحدا أشـبه صلاة برسـول الله ﷺ من ابن أم سـليم «يعنى أنسا».

وقد روى عن النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعبدالله بن رواحة وثابت بن قيس بن شماس وأبى ذر وابن مسـعود وعبد الرحمن بن عوف وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وأمه أم سليم وغيرهم.

وروى عنه الحسن وسليمان التيمى وأبو قلابة وإسحق بن أبى طلحة ومحمد بن سيرين ويحيى بن سعيد الأنصارى وسعيد بن جبير.

وقد حظى أنس بدعوة رسـول الله ﷺ له بكثرة مالـه وولده، ودخوله الجنة قال أنس: فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة.. وقد عاش أنس رضى الله عنه بعد رسول الله ﷺ ثلاثة وثمانين عاما، وقد مكنه هذا العمر الطويل من تحصيل كثير من الحديث عن كبار الصحابة، كما مكنه ذلك أيضا من نشر الحديث بين الناس وتبليغه لهم.

وقد تخرج على يدى هذا الصحابى الجليل أنس بن مالك كثير من أئمة الحديث أمثال: الحسن وابن سيرين وحميد الطويل وثابت البنانى وغيرهم من التابعين.

وقد روى من الأحاديث ستة وثمانين ومائتين وألفى حديث (٢٢٨٦) اتفق الشيخان منها على مائة وثمانية وستين، وانفرد البخارى بثلاثة وثمانين، ومسلم بواحد وسبعين وأصح أسانيده: مارواه مالك عن الزهرى عنه. وأضعف أسانيده: مارواه داود بن المحبر عن أبان بن أبى عياش عنه. وتوفى رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، خارج البصرة على نحو فرسخ ونصف الفرسخ، ودفن فى موقع يعرف بقصر أنس.

٤- السيدة عائشة أم المؤمنين

هى أم المؤمنين السيدة الفاضلة عائشة بنت أبى بكر الصديق، عبدالله بن عثمان بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، وأمها هى أم رومان بنت عامر بنت عويمر الكنانية، بنى بها رسول الله ﷺ وعمرها تسع سنين، ودخل بها فى شهر شوال من السنة الأولى، وكان قد خطبها من أبيها وهى بنت ست سنين وقيل: سبع، وكانت نامية الجسم، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرا سواها. وقد أراه الله تعالى إياها فى المنام مرتين، كما ثبت فى السنة الصحيحة، قال ﷺ لعائشة: «أريتك فى المنام مرتين إذا رجل يحملك فى شرفة من حرير فيقول: هذه امرأتك فأكشفها فإذا هى أنت فأقول: إن يكن هذا من عند الله يُمضيه» وقد وهبها الله تعالى عقلا واعيا وذاكرة قوية حافظة فكانت عالمة بأحكام الشريعة حافظة للأحاديث. وكيف لا وقد أخذت علمها وروت ما روت وعاشت ما عاشت مع رسول الله ﷺ فروت عنه، واستوعبت ما لم يستوعبه غيرها، فكانت من المكثرين لرواية الحديث النبوى الشريف.

وتلى - فى كثرة روايتها - أنس بن مالك، يقول مسروق: رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض، وقال أبو موسى الأشعرى: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ أمر قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما. ويقول هشام ابن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وكانت رضى الله عنها متفقهة ملمة بالأحاديث النبوية روت (٢٢١٠) عشرة ومائتين وألفى حديث اتفق

البخارى ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثا، وانفرد البخارى بأربعة وخمسين ومسلم بثمانية وستين.

وقد روت عن النبى ﷺ وأبيها وعمر وفاطمة وسعد بن أبى وقاص وروى عنها عمر وابنه عبدالله وأبو هريرة وأبو موسى وابن عباس وصفية بنت شيبة وعبدالله بن عامر وغيرهم. ومن آل بيتها: أختها أم كلثوم وأخوها من الرضاع عوف بن الحارث وابن أخيها القاسم وعبدالله بن محمد بن أبى بكر. ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وعمر وابن ميمون وعلقمة بن قيس ومسروق وعبدالله بن حكمى وأصح أسانيدها ما رواه يحيى ابن سعد عن عبيد الله بن عمر بن حفص عن القاسم بن محمد عنها. وماوراه الزهرى أو هشام ابن عروة عن عروة بن الزبير عنها.

وأضعف أسانيدها: مايرويه الحارث بن شبل عن أم النعمان عنها.

وكانت وفاتها رضى الله عنها سنة سبع وخمسين من الهجرة.

٥- عبدالله بن عباس

هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، فأبوه هو العباس بن عبد المطلب، وأمه هى أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت أم المؤمنين ميمونة، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين. وتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: وهو ابن خمس عشرة سنة، ورغم صغر سنه فقد تمكن من تحصيل الكثير، واستفاد من معاشرته لرسول الله ﷺ. واختلاطه به بحكم قرابته منه، فكثرت روايته عن رسول الله ﷺ.

وكانت نفسه تواقة للكتاب والسنة، وكان شغوفا بالعلم ورواية الحديث حتى كان ترجمان القرآن وحبر الأمة، ولا غرابة فى هذه المكانة إذا علمنا أن الرسول ﷺ قد دعا له بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»، هذا بالإضافة إلى موهبته وقوة ذاكرته، وكثرة سؤاله وتحصيله للعلم، وقد سئل ابن عباس: بم نلت العلم؟ فقال: «بلسان سؤول، وقلب عقول».

وقد عاش رضى الله تعالى عنه بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ثمانية وخمسين عاما ومكنه هذا العمر من التحمل والأخذ عن كبار الصحابة

وصغارهم، عن عبدالله بن عباس قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب النبى ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: واعجبا لك، أترى الناس يفتقرون إليك؟ قال: فتركت ذلك الرجل وأقبلت أسأل فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل فأتوسد ردائى على بابه تسفى الريح على من التراب فيخرج فيرانى، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلى فآتيك؟ فأقول: لا أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث فعاش ذلك الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألوننى، فقال: هذا الفتى كان أعقل منى» رواه الدارمى.

وروى عنه من الأحاديث ألف وستمائة وستون حديثا ١٦٦٠، اتفق الشيخان على رواية خمسة وتسعين منها، وانفرد البخارى بمائة وعشرين ومسلم بتسعة وأربعين. وقد ذكر النسائى أن أصح أسانيده فى الحديث ما رواه الزهرى عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس.

وأضعفها ما يرويه محمد بن مران السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح وهذه تسمى سلسلة الكذب.

ومن طرقه الجيدة فى التفسير: طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وهى التى اعتمدها البخارى فيما علقه ابن عباس، وكانت نسخة التفسير المروية بهذه الطريقة عن ابن عباس فى مصر عند أبى صالح كاتب الليث يرويها معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة ويرويها كاتب الليث عن معاوية وهذه النسخة هى التى قال عنها الإمام أحمد بن حنبل: «بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا».

وقد كف بصره رضى الله عنه فى أخريات حياته، وتوفى بالطائف عام ثمان وستين من الهجرة.

٦- جابر بن عبدالله الأنصارى

هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى السلمى. وقد روى عن النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة وأبى هريرة وخالد بن الوليد، وروى عنه أولاده عبد الرحمن وعقيل ومحمد، وسعيد بن المسيب ومحمود بن لبيد وعمرو بن دينار والحسن البصرى وعروة بن الزبير وعطاء بن أبى رباح، وشهد جابر العقبة الثانية مع أبيه

وشهد معظم الغزوات ولكنه لم يشهد غزوة بدر ولا غزوة أحد. وكانت له حلقة فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة.

روى عن الرسول ﷺ أربعين وخمسمائة وألف حديث ١٥٤٠ واتفق البخارى ومسلم منها على ستين حديثا، وانفرد البخارى بستة وعشرين حديثا، ومسلم بمائة وستة وعشرين حديثا. وأصح الأسانيد عنه ما رواه أهل مكة من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عنه. وكانت وفاته بالمدينة المنورة عام أربع وسبعين من الهجرة رضى الله عنه.

٧- أبو سعيد الخدرى

هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأجر، وكنيته أبو سعيد، كان رضى الله عنه شجاعا فى الحق، لا تأخذه فى الله لومة لائم وبايع على ذلك رسول الله ﷺ، وكان شجاعا مقداما فى الجهاد فى سبيل الله عرض يوم أحد على النبى ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة فرده الرسول ﷺ لصغر سنه وفى غزوة بنى المصطلق خرج مع الرسول ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، لقد شهد غزوة الخندق وما بعدها، وورد المدائن فى زمان حذيفة، وكان رضى الله عنه من فقهاء الصحابة وفضلائهم الورعين والبارعين فى العلم والفقه والحديث.

وقد روى لأبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ ألف حديث ومائة وسبعون حديثا، اتفق البخارى ومسلم منها على ستة وأربعين، وانفرد البخارى بستة عشر ومسلم باثنين وخمسين حديثا.

وقد روى عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت.

وروى عنه من الصحابة عبدالله بن عمر وابنه عبد الرحمن ونافع مولى ابن عمر ومن التابعين ابن المسيب وعطاء بن زيد وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وكان منهجه فى الرواية هو منهج الصحابة رضى الله عنهم فى التثبت من الراوى والمروى فما اطمأنوا إليه قبلوه وما لم يطمئنوا إليه طلبوا عليه شاهدا وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمى الصحيح، وكان أبو سعيد رضى الله عنه يقول: تحدثوا فإن الحديث يذكر بعضه بعضا،

وكان إذا سـألـه الناس أن يكتبوا عنه ما يسـمعون أجابهم بقوله : «لن تكتبوه ولن تجعلوه قرآنا ولكن احفظوا عنا كما حفظنا».

وتوفى أبو سعيد رضى الله عنه سنة أربع وسبعين من الهجرة.

■■■

السبب فى تفاوت الصحابة فى الرواية
قلة وكثرة

ترجع الأسـباب العامة فى تفاوت مرويـات الصحابة رضى الله تعالى عنهم قلة و كثرة إلى أمور منها :

- اشـتغال بعض الصحابة بالخلافة وبالجهاد فى سـبيل الله كما هو الحال فى الخلفاء الأربعـة وغيرهم كطلحة والزبير فقلت مروياتهم بينما تفرغ البعض الآخر من هذه المهام وانقطع للعلم والحديث فكثرت مروياته كما هو الحال بالنسبة لأبى هريرة وعائشة وابن عمر وغيرهم رضى الله عنهم.
- كمـا أن بعض الصحابة طالت صحبتهم للرسـول ﷺ وكثرت ملازمتهم له : وعاشـوا بعده عمرا طويلا فكان ذلك سـببا لكثرة حديثهم كابن مسـعود وأبى هريرة وأنس وابن عمر، وعلى العكس قلت رواية من مات فى عهد النبوة أو لم تكثر ملازمته أو صحبته للرسول ﷺ .
- كمـا كثـرت الرواية أيضا بتجدد الحـوادث واحتياج الناس إلى بيان الأحكام فأسـرع الصحابة إلى إظهار ما عندهم من العلم ومن الأحاديث.
- وكان بعضهـم كعلى بن أبى طالب قليل الرواية وقد دعا إلى تقليل روايته ورواية أمثاله ظهور الفتنة والكذب من بعض الفرق فكان التشدد فى قبول الرواية والتقليل منها.
- كما كان لكثرة الأتباع أكبر الأثر فى كثرة ما يروى عن الصحابى وكان لقلتهم أثرها فى قلة مايروى عنه كعثمان بن عفان رضى الله عنه.
- ومن ذلك أيضا قوة الحافظة وكتابة الحديث لدى البعض كان ذلك من عوامل الإكثار، بينمـا كان التفرغ للعبادة والتحرج مـن الرواية من عوامل الإقلال وقد يكون الطريق إلى الصحابى ضعيفا فيترك أصحاب الصحيح تخريج حديثه كما فى أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة.

وقـال الإمـام محمد بن سـعد فى الطبقـات : «قال محمد بن عمر الأسـلمى : إنما قلت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسـول الله ﷺ لأنهم ماتوا قبل أن يحتاج إليهم وإنمـا كثرت عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب لأنهما وليا فسـئلا وقضيا بين الناس..».

والحق أن كل صحابة الرسـول ﷺ عدول يقتدى بهم ويهتدى ولا يقلل من شأنهم قلة ما روى عنهم بعد أن وقفنا على سبب القلة من الرواية وأنهم كانوا غاية فى الحيطة والدقة للحفاظ على الأحاديث والسنن والأحكام فرضى الله تعالى عنهم أجمعين.

■■■

أثر أمهات المؤمنين فى نشر السنة

لأمهات المؤمنين أثر هام فى نشر السنة النبوية الشريفة، فقد قمن بتبليغ كثير من الأحكام والأحاديث والسنن التى لولاهن لما وصلت إلينا، وبالأخص تلك الأفعال التى كانت تقع بين رسول الله ﷺ وبينهن من الأمور الخاصة التى لايمكن لأحد أن يطلع عليها ولا أن يقف على أحكامها.

ومن أجل تلك المهمة العالية والرسالة الكبرى التى اضطلعت بها أمهات المؤمنين فإن الله سبحانه وتعالى قد وجه أمره الإلهى إليهن بالاستقرار فى بيوتهن ومذاكرة الكتاب والسنة ومدارستهما. قال سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[1] يقول قتادة وغيره: واذكرن هذه النعمة التى خصصن بها من بين الناس أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس، وكانت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أكثر أمهات المؤمنين بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحى فى فراش امرأة سواها، ويقول ابن جرير رحمه الله فى الآية السابقة: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة وهى السنة.

وهذه أم سلمة رضى الله عنها قالت للنبى ﷺ: ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت: وأنا أسرح شعرى، فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرتى حجرة بيتى فجعلت سمعى عند الجريد فإذ هو يقول عند المنبر: يا أيها الناس إن الله تعالى يقول: «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...» إلخ الآية رواه أحمد والنسائى وابن جرير.

ومن بين الحكم العالية التى أباح الله للرسول ﷺ بسببها الزواج بأكثر من أربع زوجات وخصه بذلك وحده دون غيره من سائر الأمة قيام أمهات المؤمنين بالتبليغ

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣، ٣٤).

عــن رســول الله ﷺ، وبالأخص الأمور التى لا يراها أصحابــه ولا يطلع عليها إلا أمهات المؤمنين، ومن أجل ذلك كان الصحابة رضى الله عنهم إذا استشــكلت عليهم مســألة من المسائل أو اختلفوا فى حكم من «الغسل» أو «الحيض» أو نحو ذلك يسألون أمهات المؤمنين، فكان لأمهات المؤمنين فضل عظيم فى نشــر كثير من الأحاديث والســنن والأحكام التى لا يمكن الاطلاع عليها إلا عن طريقهن وقد كن على جانب كبير من العلم والمعرفة والتفقه فى الدين والذكاء والفهم لا سيما السيدة عائشة رضى الله عنها.

عن ابن أبى مليكة أن عائشة زوج النبى ﷺ كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه.

وتظهر أهمية الدور الذى لأمهات المؤمنين فى نشر الأحكام والسنن عندما كان بعض النســاء يستحيين من سؤال الرســول ﷺ عن أمورهن، ولكنهن كن يتعرفن على ما يروى من أمهات المؤمنين لأنهن على صلة دائمة بالرســول ﷺ ومكانتهن منه كزوجات تمكنهن من التعرف على شــتى أنواع الأحكام بلا اســتثناء رضوان الله تعالى عليهن.

■■■

أشهر الرواة من التابعين[1]

ومن أشهر رواة التابعين بالمدينة المنورة: سعيد بن المسيب الذى توفى سنة (٩٣هـ) وعروة بن الزبير (٩٤هـ) ونافع مولى ابن عمر (١١٧هـ) وابن شهاب الزهرى (١٣٤هـ).

ومن أشهرهم بمكة المكرمة عكرمة مولى ابن عباس (١٠٥هـ) وعطاء بن أبى رباح (١١٥). وبالكوفة الشعبى عامر بن شراحبيل (١٠٤) وإبراهيم النخعى (٩٦) وبالبصرة الحسن بن أبى الحسن البصرى (١١٠) ومحمد بن سيرين (١١٠) وبالشام عمر بن عبدالعزيز (١٠١) ومكحول (١١٨) وكعب الأحبار (٣٢).

وبمصر أبو الخير مرثد بن عبدالله اليزنى (٩٠) ويزيد بن أبى حبيب (١٢٨) وباليمن طاوس بن كيسان اليمانى (١٠٦) ووهب بن منبه (١١٠) رضى الله عنهم جميعا.

■■■

(١) الحديث والمحدثون د. محمد أبو زهو.

البحث الثانى:
مناهج المحدثين فى القرن الثانى الهجرى
منهج تدوين السنة
فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز

لقد هم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بكتابة الحديث، واستشار أصحاب الرسول ﷺ، فأشاروا عليه، فطفق يستخير الله فى ذلك مدة ثم عدل عن ذلك، روى البيهقى - فى المدخل - عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن واستشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: إنى كنت أردت أن أكتب السنن وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم، كتبوا كتبا، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا. اهـ.

وأما هؤلاء القوم الذين أشار إليهم عمر رضى الله عنه فى قوله، فهم أهل الكتاب، وقد خاف إذا حدث التدوين أن تكون النهاية كسابقيهم من أهل الكتاب حين كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا: هذا من عند الله وتركوا كتاب الله وراءهم ظهريا وفى شأنهم قال الله سبحانه ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1].

واستمر حال السنة على ذلك حتى انتشر الإسلام واتسعت الفتوحات، وتفرق الصحابة فى الأقطار، وخيف على السنة أن يضيع منها الكثير بموت الصحابة. وبظهور بعض أهل الأهواء بعد ذلك. وبظهور جيل آخر جديد لا يجيد الضبط أو الحفظ بسبب اختلاط العرب بغيرهم فدعت الحال إلى تدوين الحديث النبوى خاصة وأن القرآن قد تركز فى القلوب وصار يتلى لدى العامة والخاصة، فلم يعد هناك خوف من التباسه بغيره.

وفى هذه المرحلة أراد الإمام العادل عمر عبد العزيز أن يدون السنة، وذلك حين أفضت الخلافة إليه فى العام التاسع والتسعين من الهجرة، فكتب إلى بعض علماء الأمصار يأمرهم

(١) سورة البقره (٧٩).

أن يجمعوا الأحاديث، كما كتب إلى أقطار الإسلام: «انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه».

وكتب إلى أبى بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبى ﷺ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا.

كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبى بكر، وأمر ابن شهاب الزهرى وغيره بجمع السنن، فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذى تجاوبت معه قلوبهم.

وهكذا أتم الله تعالى على يد عمر بن عبد العزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه التى عدل عنها خشية التباس السنة بالقرآن الكريم.

وأما عن منهجهم فى التدوين آنئذ، فإنه يقوم على وحدة الموضوع، فيجمعون الأحاديث التى تتصل بموضوع واحد، فيجعلونها فى مؤلف خاص، فكان لكل باب من أبواب العلم مؤلف قائم به، فمثلا كتاب للصلاة، وكتاب للزكاة، وآخر للصوم وهكذا.

وهذه المصنفات وإن لم تقع فى أيدينا اليوم فإنه من الواضح أن العلماء قد أدمجوها فى مصنفاتهم، فقد كانت محفوظة لهم كما هو معهود فيهم من قوة حافظتهم وشدة حرصهم.

وقد أخلص الإمام الزهرى نيته وعمله لله ولرسوله فى تدوين السنة، والتنبيه على العناية بها وبأساليبها.

وقد كان عمل الإمام الزهرى، بمثابة حجر الأساس لتدوين السنة فى كتب خاصة، لحرصه على تسليم الأمانة كاملة للجيل الذى بعده، كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه.

وأما بعد الإمام الزهرى، فقد تناول الأئمة رسالته، وأخذوا يتمون ما بدأه وشاع التدوين فى الطبقة التى تليه، وتعاون الأئمة والعلماء فى المدن الإسلامية، فى مكة والمدينة والبصرة والشام ومصر واليمن وخراسان.

واضطلع الأئمة من أمثال ابن جريج بمكة، ومالك بالمدينة، وسفيان الثورى بالكوفة وغيرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم فأكملوا ما بدأه الزهرى.

وأما منهج أهل هذه الطبقة فى التدوين، فإنه يقوم على جمع أحاديث كل باب من أبواب العلم على حدة، ثم ضموا الأبواب بعضها إلى بعض فكانت مصنفا واحدا.

وجمعوا فى مصنفاتهم إلى جانب الأحاديث أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وأما من جاء بعد هؤلاء الأئمة من أهل عصرهم فقد سار على دربهم ونسج على منوالهم إلى أن رأى

بعض الأئمة إفراد الحديث خاصة على رأس المائتين، ثم جاءت طبقة أخرى دونت السنة فى كتب خاصة تحروا فى تدوينها الصحيح على شروطهم وبهذا يتضح أن تدوين السنة لم يأخذ وضعه فى الظهور والتصنيف تماما إلا فى منتصف القرن الثانى فى خلافة بنى العباس، وإن كان قد بدأ قبل ذلك.

وكان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره البالغ فى حفظها من الدخيل، ومن الكذب على رسول الله ﷺ، كما كان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره حيث سهل الطريق للاجتهاد والاستنباط.

منهج الإمام أبى حنيفة

من أئمة القرن الثانى الهجرى الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن النعمان ولد سنة ثمانين من الهجرة وعاش إلى سنة خمسين ومائة.

والتقى أبو حنيفة رضى الله عنه ببعض الصحابة رضوان الله عليهم من أمثال أنس بن مالك الذى توفى سنة ثلاث وتسعين، وسهل بن ساعد المتوفى سنة ثمان وثمانين وأبى الطفيل المتوفى سنة اثنين ومائة وعلى هذا فأبو حنيفة يعد من التابعين على رأى من يكتفى فى التابعى بأنه من لقى الصحابى وإن لم تكن بينهما صحبة، وأما على الرأى القائل بأن التابعى من رأى الصحابى، حدثت بينهما صحبة وتلقى عنه فلا يكون تابعيا إلا إذا رجحنا ما قال بأنه روى عن بعض الصحابة المذكورين وهذا ما لم يذهب إليه كثير من العلماء.

وعلى أية حال، فمهما يكن الأمر فى شأن روايته عن الصحابة، فالعلماء مجمعون على أنه التقى بالتابعين وجالسهم، وروى عنهم، وأخذ فقههم، وقد اختلفت مناهج الذين روى عنهم، فقد كان من بينهم من هو مشهور بالأثر كالشعبى، وكان من بينهم من هو مشهور بالرأى وهم كثيرون وكان أبو حنيفة ولعا بالمناظرة والجدل منذ شب فى طلب العلم روى أنه جادل نحو اثنتين وعشرين فرقة، وجادل وهو كبير دفاعا عن الدين، روى أنه جادل الدهرية مرة، فأفحمهم ووجههم إلى الإيمان بالله الخالق قال لهم: «ما تقولون فى رجل يقول لكم: إنى رأيت سفينة مشحونة، مملوءة بالأمتعة والأحمال قد احتوشتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهى من بينها تجرى مستوية، ليس فيها ملاح يجريها ويقودها، ولا متعهد يدفعها ويسوقها هل يجوز ذلك فى العقل؟

فقالوا: لا، هذا شىء لا يقبله العقل، ولايجيزه الوهم.

فقال أبو حنيفة رحمه الله: فيا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل وجود سفينة مستوية من غير متعهد ولا بحر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أمورها وأعمالها وسعة أطرافها، وتباين أكتافها من غير صانع وحافظ ومحدث لها؟!.

وكان أبو حنيفة من أوائل الفقهاء الذين يقبلون أحاديث الآحاد ويحتجون بها ويجعل السنة النبوية بعد القرآن الكريم فيعتمد فى فقهه أولا على القرآن الكريم ثم على الحديث إن ثبت عنده برواية الثقات، ويقدمه على القياس.

ومنهج أبى حنيفة فى قبول خبر الآحاد يقوم على اشتراط كون راويه فقيها وألا يخالف السنة المشهورة ولا المتوارث بين الصحابة والتابعين ولا عمومات الكتاب، وألا يكون فيما تعم به البلوى ومنه الحدود والكفارات، وألا يكون أحد السلف طعن فيه، وألا يعمل الراوى بخلاف خبره، وألا ينفرد بزيادة فى الحديث عن الثقات.

ولأبى حنيفة مسند «من الأحاديث مرتب على الأبواب الفقهية» ومبوب على حسب الأحكام، وقد رجح كثير من العلماء أن هذا المسند المنسوب إلى أبى حنيفة من رواية أصحابه عنه، تلقوه كما تلقوا فقهه بأن دونوا ما يذكره لهم فى درسه ثم جمعوا تلك المرويات فرتبوها وبوبوها ونشروها.

ولكن الحافظ ابن حجر يقرر فى كتاب «تعجيل المنفعة» أن المسند المنسوب إلى أبى حنيفة ليس من جمعه وأن الموجود من حديثه إنما هو كتاب الآثار الذى رواه محمد بن الحسن، ويوجد فى تصانيف محمد بن الحسن وأبى يوسف قبله من حديث أبى حنيفة أشياء أخرى.

وأما صاحب كشف الظنون فقد ذكر رواية مسند أبى حنيفة وأشار إلى ما ذكره الخوارزمى المتوفى سنة ٦٦٥هـ حين سمع البعض ينسب أبا حنيفة إلى قلة رواية الحديث مستدلا بمسند الشافعى وموطأ مالك وأن أبا حنيفة لا مسند له فجمع خمسة عشر من مسانيده التى جمعها له فحول العلماء.

وقام بتدوينها على ترتيب أبواب الفقه. وحذف المكرر والمعاد، وترك تكرير الإسناد، هذا هو ملخص منهج هذا المسند فى التدوين وهذا المسند لم تكن إضافته إلى أبى حنيفة كإضافة الموطأ إلى مالك إذ إن مسند أبى حنيفة روايات عنه لم يجمعها ولم يبوبها وإنما رتبها وبوبها من رواها.

أما الموطأ فإن الإمام مالكا رضى الله عنه قد دونه ورواه عنه غيره مبوبا ومرتبا، وكون مسند أبى حنيفة ليس كذلك لا يقدح فى صحة نسبته، وذكر العلماء لأبى حنيفة مسانيد

أخرى للدار قطنى وابن شـاهين والخطيب وابن عقدة ومسند أبى حنيفة لابن عقدة يشتمل على ألف حديث.

وفى هذا كله ما يرد عنه ما قيل من أنه قليل البضاعة فى الحديث وأنها دعوى باطلة يقول الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشافعى محدث الديار المصرى: «كان أبو حنيفة من كبار حفاظ الحديث وأعيانهم، ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه..» وذكره الذهبى فى طبقات الحفاظ.

وأما السبب فى قلة الرواية عنه فلأنه كان مشتغلا بالاستنباط، وكذلك لم يرو عن مالك والشافعى إلا القليل، بالنسبة إلى ما سمعاه لهذا السبب.

وهـو وإن لم يدون حديثه وفقهه بنفسـه فإنه أشـار على أصحابـه وتلاميذه بالتدوين وأرشـدهم إلى ذلـك، فكان هذا التوجيه منه بمثابة تدوينـه هو لدرجة أنه جاء فى المناقب للمكـى مـا نصه: «أبو حنيفة أول من دون علم هذه الشـريعة» والمقصود بالتدوين ما صنعه تلاميـذه بإرشـاد منه، حيـث رأى أن الصحابة والتابعين لم يضعـوا الكتب اعتمادا على حفظهم وفهمهم فخاف ضياع العلم بعد ذلك بموت العلماء، كما قال رسـول الله ﷺ فيما رواه البخارى:

«إن الله لايقبـض العلـم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

■■■

منهج الإمام سفيان الثورى

من أئمة الحديث فى القرن الثانى الهجرى: الإمام أبو عبيد الله سـفيان بن سـعيد بن مسـروق الثورى، من تابعى التابعين، أجمع العلماء على إمامته فى الحديث والفقه، يقول عنه أبو عاصم: الثورى أمير المؤمنين فى الحديث. ولد سـنة سبع وتسعين وتوفى بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة من الهجرة.

وللثـورى منهجه فى تحمل الحديث وأخـذه وتدوينه وجمعه، فقد حرص على كتابته بيـده مخافـة الوقوع فى وهم أو خطأ، هذا مع حفظه القوى أى أنه ما كان يكتفى بالحفظ وحـده ولا بالكتابة وحدها، بل يرى من تمام الحيطة للحديث والمحافظة عليه أن يجمع بين الحفظ والكتابة.

ولكنه فى كتابته للحديث تميز بمنهج قويم، يميز فيه أنواع ما يكتبه، فيكتب الحديث الصحيـح ليميز صحته للناس فيتخذ دينا، وأما مـا يتوقف فى صحته فإنه لا يطرحه بل يكتبـه لعل من بعده يصـل إلى معرفة درجته، كما يكتب الضعيف ليعرف الناس به حتى لا يلتبـس بالصحيح وحتى لا يأتى أحد الكذابين فيضع له إسـنادا صحيحا ليوهم الناس بـه يقول – رحمه الله –: «إنى أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه: حديث أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به، وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعبأ به»[1].

كما عنى عناية فائقة بالإسـناد وهو الطريق الموصلة إلى متن الحديث ولفظه فهو يشترط فى سلسلة الإسناد وهم الرجال أن يكونوا ثقات، بأن يكونوا عدولا ضابطين فإذا لم تتحقق ثقة الراوى أو الثقة بمن روى عنه لا يقبل حديثه، وعلى طالب الحديث ألاَّ يأخذ مثل هذا.

وفـى هذا يقول سـفيان رحمه الله: إذا حدثك ثقة عـن غير ثقة فلا تأخذه وإذا حدثك غير ثقة عن ثقة فلا تأخذه، وإذا حدثك ثقة عن ثقة فخذه[2]. ونظرته إلى إسـناد الحديث هامة ودقيقة، فهو يقول: الإسناد سلاح المؤمن إذا لم يكن معه سلاح فبأى شىء يقاتل.

ومن مصنفاته: «الجامع الكبير» وهو من أوائل ما صنف فى الإسلام، وقد ظهر كتابه فى الكوفة فكان أول كتاب فيها، وكان مكونا من كتب وكل كتاب تحته أبواب يشتمل عليها.

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالله.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم.

واختصر الإمام الثورى كتابه «الجامع الكبير» فى كتابه «الجامع الصغير» ومن مصنفاته أيضا «الفرائض» وهو يتكون من أبواب ذكر فى كل باب آراء بعض الصحابة الذين أفتوا فى تلك المسائل، وله كذلك كتاب التفسير، وسوره مرتبة على الترتيب العثمانى.

وقد جلس الإمام سفيان الثورى للتدريس فى سن مبكرة، وأول جلوسه للتدريس بخراسان وهو ابن ثمان عشرة سنة، وفى هذا دلالة على حسن تحصيله وحفظه، وغزارة علمه.

ودرس الحديث فى مكة المكرمة، وفى اليمن والبصرة والشام، وكان يدرس فى مكة المكرمة فى المسجد الحرام، وكان مجلسه العلمى يضم عددا كبيرا من طلاب العلم بل من كبار المحدثين من أمثال ابن عيينة، وزهير، وإسماعيل بن أبى خالد، وفى حرص من كبار المحدثين على حضور مجلسه ما يدل على تقدير العلم والحرص على تحصيله بحيث لا يترفع عن التعلم أحد مهما كانت منزلته فى العلم ومهما كان عمره، فالعلم لا حدود له، يطلبه الإنسان من المهد إلى اللحد.

وكان مجلسه العلمى فى المسجد الحرام يقدر بنحو خمسمائة، وكان إذا جلس يستقبل القبلة، ويلتف الحفاظ حوله، ويتخير للقراءة أفصح القراء لسانا. فيقول: ليقرأ على أفصحكم لسانا، فإنى أسمع اللحنة فيتغير لها قلبى.

وفى هذا حرص شديد على استقامة اللسان، وسلامة النطق والمحافظة على قواعد اللغة، لما فى ذلك من سلامة المعنى، وزيادة إيضاحه، وتقرير الحقائق العلمية دون لبس أو غموض.

وفى عصر سفيان صنفت كتب مرتبة على أبواب الفقه. اشتملت على السنن وما له صلة بها منها ما هو «مصنف» ومنها ما هو «جامع» كجامع سليمان. وجامع أبى عروة معمر ابن راشد المتوفى سنة ثلاث وخمسين ومائة وكتاب الآثار لمحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة.

ومنها كذلك نهجت على جمع أحاديث الآداب والأخلاق والترغيب والترهيب والفضائل ككتاب الذكر والدعاء لأبى يوسف صاحب أبى حنيفة.

■■■

منهج ابن المبارك

ومن بين المصنفات التى صنفت فى القرن الثانى الهجرى، كتب فى أبواب مخصوصة أى أنها ليست جامعة كالجوامع الأخرى التى تجمع بين العديد من الأبواب، وتكون مرتبة ترتيبا فقهيا بل إنها فى أبواب مخصوصة وموضوعات معينة، ولهذا المنهج ثمرته فى استقصاء ما يتصل بموضوعه من الأحاديث، ويعتبر مرجعا أصيلا فى بابه، كما كان لهذا المنهج أثره فى جمع الطرق والروايات المتعددة فى الموضوع الواحد مما يساعد المصنفين على الأبواب، والمؤلفين لجوامع الكتب على تناول ما يحتاجون إليه من الأحاديث بسهولة.

وممن صنف فى هذا أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك المروزى من تابعى التابعين، ولد سنة ثمانية عشرة ومائة وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة.

وقد جمع ابن المبارك بين العلم والعمل، وبين التعليم والتصنيف، وبين العديد من خصال الخير ومكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، فهو نموذج من النماذج العالية لطلاب العلم والعلماء. وقد اجتمع فريق من أصحاب ابن المبارك مثل الفضل بن موسى ومخلد ابن الحسين، فقالوا: تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والإنصاف، وقيام الليل والعبادة والسلامة فى رأيه، وقلة الكلام فيما لا يعنيه، وقلة الخلاف على أصحابه.

وكان ابن المبارك يعتمد فى علمه وفقهه على الكتاب والسنة، وكان يتحرى الدقة فى أسانيد الحديث، ويرى أن الإسناد من الدين فبالإسناد يتميز صحيح الحديث من غيره.

ولهذا كان يقول: الإسناد عندى من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، أى لولاه لاستطاع الوضاعون والكذابون أن يدسوا كما شاءوا، وقد سئل: عمن نأخذ؟ قال: من طلب العلم لله، وكان فى إسناده أشد.

ومن مصنفاته: «تفسير القرآن» و«السنن فى الفقه» وكتاب التاريخ وكتاب الزهد وكتاب البر والصلة وآخر فى الفتاوى. وكتاب فى الرقائق وكتاب أربعين فى الحديث.

ويعتبر كتابه «الجهاد» أول مؤلف صنف فى هذا الموضوع فى ذلك القرن وموضوع الجهاد من الأبواب الهامة فى السنة النبوية ولا يخلو منه كتاب من كتبها، وقد خصص له كثير من المحدثين مؤلفا قائما بذاته ككتاب ابن المبارك وهو كتاب جمع فيه

أحاديث الجهاد وأول حديث فى الجزء الأول من هذا الكتاب هو ما رواه ابن المبارك بسنده، عن عبدالله بن سلام قال: تذاكرنا بيننا، فقلنا: أيكم يأتى رسول الله ﷺ يسأله: أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: نهينا أن يقوم منا أحد، قال: أرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلا رجلا حتى جمعنا، فجعل يشير بعضنا إلى بعض فقرأ علينا ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ من أولها إلى آخرها فتلاها علينا عبدالله بن سلام من أولها إلى آخرها، قال هلال فتلاها علينا عطاء بن يسار من أولها إلى آخرها، قال الأوزاعى: فتلاها علينا يحيى من أولها إلى آخرها، ومعلوم ما فى سورة «الصف» من الدعوة إلى الجهاد صفا واحدا ومحبة الله للمؤمنين المجاهين كذلك. ثم توضيح ثمرة الجهاد عند الله سبحانه وتعالى.

وأول حديث فى الجزء الثانى من الكتاب هو ما رواه ابن المبارك بسنده عن موسى ابن أنس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال: فقعد ثابت بن قيس فى بيته وقال: لا أرانى إلا كنت أرفع الصوت على رسول الله ﷺ، فافتقده النبى ﷺ فسأل عنه، فقال رجل من القوم إن شئت علمت لك علمه يارسول الله، فوجده منكر الوجه فقال: إن رسول الله ﷺ افتقدك وسأل عنك فقال: إنى كنت أرفع الصوت على رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية وإنى من أهل النار، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال: قال موسى بن أنس فأتاه المرة الثانية ببشارة عظيمة، فقال له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة.

وهذان نموذجان لما فى الكتاب من الأحاديث عن الجهاد، ويبلغ عددها حوالى اثنين وستين ومائتى حديث، أخرج الكثير منها الإمام البخارى والإمام مسلم وأصحاب السنن بعد ذلك وغيرهم.

■■■

منهج شعبة بن الحجاج

مــن أئمة الحديث فى القــرن الثانى الهجرى: الإمام الجليل، والحافظ الكبير شــعبة ابن الحجاج من تابعى التابعين، ومن أعلام المحدثين،وكبار المحققين، ولد على الأرجح سنة ثلاث وثمانين من الهجرة، وتوفى سنة ستين ومائة، وقد تلقى الحديث عن أنس بن ســيرين وعمرو بن دينار والشــعبى وغيرهم من التابعين وغير التابعين، وأخذ عنه الحديث الأعمش وأيوب السختيانى ومحمد بن إسحق من التابعين، وممن أخذ عنه من كبار الأئمة: الثورى، وابن مهدى، ووكيع وابن المبارك.

قال عنه الإمام أحمد: لم يكن فى زمن شــعبة مثله فى الحديث ولا أحســن حديثا منه قسم له منه حظ.

وكان لشعبة بن الحجاج منهجه فى طلب الحديث النبوى يتلخص فى حرصه الشديد على إســناد كل حديــث، وهو يعتبر أول من بحث عن أحوال الــرواة، يقول ابن حبان: شعبة أول من فتش عن أمر المحدثين بالعراق، وجانب الضعفاء والمتروكين حتى صار علما يقتدى به، ثم تبعه عليه بعده أهل العراق.

كما كان يتشدد فى صيغ السماع، ولا يكتفى بسماع الحديث مرة واحدة، يقول يعقوب ابن شــيبة: «كان شــعبة إذا لم يسمع الحديث مرتين لم يعتد به ضبطا منه له وإتقانا» كما كان يترك الحديث إذا شــك فيه وفى هذا دلالة على تثبته القوى فى الســنة، ومحافظته الشديدة على حديث رسول الله ﷺ.

وكان يتخــذ من يحدثهم بحديثه، فهو يحدث الناس وطلاب العلم، وإذا علم إنســانا يشك فى إخلاصه للسنة أو عرف أنه لا يعنى بالحديث أو أنه قد يكذب فلا يحدثه حرصا منه على الحديث، وحفاظا على الدين.

وكما كان حريصا فى تحديث الغير، فقد كان حريصا فى الســماع، وكان يوجه طلاب العلم وأهل الحديث أن يقصدوا الأئمة المتضلعين فى هذا الشأن لأن علم الحديث دين، وبه تعرف أحكام الشريعة مفصلة.

وقد جمع شعبة بين العلم والعمل، وبين الحديث والفقه والورع والزهد وكان له الفضل فى نشر الحديث بالعراق، قال الإمام الشافعى: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق.

ولرسـوخ قدمه فى هذا العلم وتضلعه فيه؛ كان الأئمة وكبار المحدثين يعتدون بموافقته فيقول حماد بن سـلمة: لا أبالى من يخالفنى إذا وافقنى شـعبة لأن شعبة كان لا يرضى أن يسمع الحديث مرة، وإذا خالفنى شعبة فى شيء تركته.

وكان أول من تكلم فى الرجال مدحا وتعديلا ثم تبعه يحيى القطان ثم أحمد بن حنبل وابن معين، وهذا يدل على تقدمه فى هذا العلم ولتبحره فى علم الحديث يقول عنه الإمام ابـن حنبل: كان شـعبة أمة وحده فى هذا الشـأن، يعنى علم الحديـث، وأحوال الرواة وقال عبد الصمد: أدرك شعبة من أصحاب ابن عمر نيفا وخمسين رجلا.

وأحاديثه كثيرة ومبثوثة فى كتب السـنة المشـهورة التى صنفت بعده كالكتب السـتة وغيرها.

وفـى هذا دلالة على تأثـيره فيمن بعده، وعلى انتفاع الأئمة والحفاظ فضلا عن سـائر العلماء والطلاب، بعلمه وحديثه وفضله.

وقد بلغ ما رواه الإمام البخارى عن طريقه خمسة وستين وسبعمائة حديث: لقد كان له الفضل على كثير من أهل العلم والحديث، وكانت جهوده المباركة من أكبر الأعمال لصيانة السنة ونشرها. والحفاظ عليها وتبليغها، وتعليم الناس لها والاهتداء بهديها.

الإمام مالك ومنهجه فى الموطأ

لقد نشـطت حركة تدوين السـنة الشـريفة، فى منتصف القرن الثانى الهجرى إلا أن مصنفات هذا العصر مما جمعه الزهرى ومن تبعه، معظمها قد اندمج فى غيره من المؤلفات التـى ظهـرت بعد ذلك، ولم تصل من مصنفات ذلك العهد إلا القليل، ومن أشـهر وأعظم الكتب التى وصلت فى ذلك العهد كتاب «الموطأ» للإمام مالك رحمه الله تعالى.

والإمام مالك، هو مالك بن أنس بن أبى عامر ولد بالمدينة سنة ثلاث وتسعين، وكانت أمه من فضليات النسـاء الصالحات، فهى التى وجهته إلى طلب العلم، فعندما بلغ سـن التعليم عممته وقالت له: اذهب فاكتب «تريد الحديث».

وقـد عـرف من صغـره بحبه الشـديد للعلـم، وحرصه علـى جمعه، ولايمـل من طلب الحديث وحفظه واسـتمرار ملازمة شيوخه، لقد كان يأتى شـيخه ابن هرمز مبكرا، ولايفارق بيته حتى الليل، ولازمه سـبع سـنين، كما عرف بشـدة تحريه فى روايـة الحديث ودقته

البالغـة فـى أخـذه، وتحمله وأدائـه، ولا ينقل إلا عـن الأثبات الثقـات، وكان يقول: إن هـذا العلـم ديـن فانظـروا عمـن تأخذونه، ولقـد أدركت سـبعين ممن يقولـون قال رسـول الله ﷺ عند هذه الأسـاطين وأشـار إلى المسـجد، فما أخذت عنهم شـيئا، وإن أحدهـم لـو اؤتمن على بيـت مال لكان أمينـا إلا أنهـم لم يكونوا من أهل هذا الشـأن.

وقـد أثنى على صحة روايته وغـزارة علمه العديد من العلماء والأئمة، وقد روى عنه بعض أقرانـه ومن هم أكبر منه سـنا، وروى عنه الإمام أبو حنيفـة وصاحباه، بل روى عنه من شـيوخه ابن شهاب الزهرى وربيعة الرأى ونافع بن عبد الرحمن القارئ، وهذا كله يشهد له بغزارة العلم، فلم يكن غريبا أن يلقب بإمام الأئمة.

وكان الإمام مالك رحمه الله معروفا بحبه للسـنة الشـريفة وتعظيمه لها ولمجلسها فإذا جلس للحديث توضأ وسرح لحيته، وجلس على صدر فراشه فى وقار وهيبة. ولما سئل عن ذلك قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، وكما كان يجل الحديث ومجالسه، فقد كان يجل صاحب السـنة عليه الصلاة والسـلام حيا وميتا، فقد روى عنه أنه كان لايركب دابة فى المدينة المنورة؛ تكريما لأرض ضمت جسد رسول الله ﷺ.

ولقـد كان إمـام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة الذين انتشـرت مذاهبهم فى الأقطار الإسلامية، أجمع الأئمة على إمامته ومكانته فى السنة ونقد الرواة، واستنباط الأحكام من الكتاب والسنة.

وفى كل ذلك عرف بالتثبت فى الحديث وفى الرجال، فكان موثوقا به فى هذا المضمار لدرجة أن شيوخه وأقرانه قد أخذوا عنه، ورحل إليه الناس من شتى الأقطار البعيدة طلبا للعلم لثقتهم فيه، ومعرفتهم لنباهة شـأنه، وكانت معظم روايته عن أهل الحجاز؛ لأنه لم يرحل عن المدينة لأنها مهبط الوحى ومنبع الحديث.

ولقد منحه الله تعالى حافظة قوية، وقلبا مخلصا واعيا، فكان غاية فى الإتقان والضبط، يقول عبد الرزاق فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعا: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة» يريد الإمام مالكا رضى الله عنه.

وللإمـام مالك منهجه الدقيق فى تمييز الرجال والعلماء، ومن يؤخذ عنه الحديث منهم ومـن لايؤخذ، وله نظرته البعيدة الحكيمة، حيـث نظر إلى الاحتياط فى الدين والاحتياط فـى الإتقان، والإخلاص فى العلم والعمل والضبط قـال: «لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ

ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته أو ممن يكذب فى أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وعبادة إذا كان لايعرف مايحمل، وما يحدث به».

وعرف الإمام مالك بأخلاقه العالية، وسجاياه الحميدة، فكان جوادا سخى اليد سمحًا، تبدو عليه سيما الوقار والحلم، وكان مجلسه تظلله السكينة والهيبة، فلا شىء فى مجلسه من المراء ولا اللغط ورفع الصوت، كما عرف بالتواضع وكراهية الشهرة.

ومما يدل على تواضعه وإنكاره للذات وإحقاقه للحق، موقفه من الرشيد حين قال له: أردت أن أعلق كتابك هذا فى الكعبة، وأفرقه فى الأمصار، وأحمل الناس عليه، فقال له مالك: لا تفعل، فإن الصحابة تفرقوا فى الآفاق، ورووا أحاديث غير أحاديث أهل الحجاز وأخذ الناس بها فاتركهم وما هم عليه، فقال له الرشيد: جزاك الله خيرا يا أبا عبدالله، وتوفى رحمه الله سنة مائة وتسعة وسبعين بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع.

منهجه فى الموطأ

يعد كتاب «الموطأ» للإمام مالك من أوائل ماصنف فى الأحاديث الصحيحة، المرتبة على الأبواب، وسمى هذا الكتاب القيم بالموطأ، لأنه صنفه ووطأه للناس وييسر به العلم ومهده، وقيل لأن مالكا عرضه على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فواطئوه عليه - أى وافقوه - فسمى موطأ وروى أن الخليفة المنصور لقى مالكا فى الحج، وطلب إليه أن يجمع أحاديث الرسول ﷺ، قائلا له: يا أبا عبدالله، لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك، فاجمع هذا العلم، ودونه ووطئه للناس توطئة، وتجنب شدائد عبدالله بن عمرو ورخص عبدالله بن عباس، وشواذ ابن مسعود واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة.

وللموطأ مكانته، يقول عنه أبو بكر بن العربى: الموطأ هو الأصل الأول واللباب، وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى.

وأما منهج الإمام مالك فى الموطأ: فيقوم على طريقة التصنيف على الأبواب وأنه يذكر فى مقدمة الموضوع ماورد فيه من حديث رسول الله ﷺ ثم ماورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين وقل أن يكونوا من غير أهل المدينة، وأحيانا يذكر بعض الآراء الفقهية له، وأحيانا يذكر ما عليه العمل أو الأمر المجمع عليه فى المدينة، وقد يأتى بعد ذكر الحديث بتفسير كلمة لغوية أو يبين المراد من بعض العبارات.

ويوضـح الإمام منهجه فى ذلـك، ومراده برأيه فيقول: أما أكثر مـا فى الكتاب برأيى فلعمرى ما هو برأيى، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم وهم الذين كانوا يتقون.

ومنهجـه بالنسـبة للرواة حدده تحديـدا واضحا إذ بين من يؤخذ عنـه ومن لا يؤخذ عنه، فكان ينتقى الرواة ويميز بينهم، ويشترط فيهم شروطه السابقة التى تجمع بين العلم والعمل، وبين العدالة والضبط، فهو يتتبع فى الرواة أعلى سمات التوثيق.

ولهذا التحرى الشديد فى الرجال كان يحيى بن معين، يوثق الرجل لرواية مالك عنه، ويقول على بن المدينى: إذا حدث مالك عن رجل من أهل المدينة ولانعرفه فهو حجة لأنه كان ينتقى.

وتميـز ما جمعه مـن الأحاديث بالصحة وعدم الغرابة، وكان لمـا جمعه صلته القوية، بالحياة العلمية، ولذا اشتدت حاجة الناس إلى علمه على مختلف طبقاتهم.

وأمـا درجة الموطأ فقد وضح العلماء أن كل أحاديثه صحيحة، وأن أسـانيده قد وردت متصلة، وأما ما فيه من المرسل والمنقطع وما جاء فيه من قوله: «بلغنى ومن قوله عن الثقة» فقد وصلها العلماء وبينوا ورودها مسـندة، سـوى أربعة أحاديـث تناولها العلماء بالبحث وحكموا بوصلها.

وللموطـأ روايات كثيرة، ونسـخ عديدة من أهمها: نسـخة يحيى بـن يحيى الليثى، ونسخة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة، ونسخة أحمد بن أبى بكر القاسم قاضى المدينة.

وشرح الموطأ كثير من العلماء منهم: ابن عبد البر، والسيوطى، والزرقانى، وعبد الحى ابن محمد اللكنوى، وقطب الدين أحمد بن عبد الرحيم.

وإليـك أيهـا القارىء الكريم نموذجا مما جاء فى الموطـأ: «ماجاء فى الدعاء» عن مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن عائشة أم المؤمنين قالت: كنت نائمة إلى جنب رسـول الله ﷺ ففقدته من الليل فلمسـته بيدى فوضعت يدى على قدميه وهو سـاجد يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

■■■

الإمام الشافعى وعنايته بالسنة

ومن كتب السنة التى وصلت إلينا، مما صنف فى هذا العهد «مسند» الإمام الشافعى رحمه الله تعالى، وقبل أن نعرف بعناية الإمام الشافعى بالسنة نعرف به، فهو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب يلتقى نسبه مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف ولد بغزة سنة خمسين ومائة ١٥٠هـ، وتوفى والده وهو صغير، فنقلته والدته إلى مكة المكرمة وهو ابن سنتين.

وفى مكة المكرمة قرأ القرآن الكريم وأقام فى هذيل نحوا من عشر سنين فتعلم منهم اللغة والشعر وأخذ الفقه والحديث عن مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة وغيره من الأئمة.

وفى المدينة المنورة أخذ العلم عن الإمام مالك، وقرأ عليه الموطأ، كما أخذ عن إبراهيم ابن أبى يحيى، ولم يلبث أن ذاع صيته وصار يقصده الناس من كل مكان، جلس أحمد ابن حنبل مرة معه، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه تركه مجلس ابن عيينة شيخ الشافعى، وجلوسه إلى هذا الأعرابى فقال له أحمد: اسكت إنك إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول وإن فاتك عقل هذا أخاف ألا تجده، مارأيت أحدا أفقه بكتاب الله من هذا الفتى.

وقد تولى الحكم بنجران من أرض اليمن، وعاد إلى مكة ثم قدم العراق ثم رجع إلى مكة وفى سنة ثمان وتسعين ومائة رحل إلى العراق للمرة الثالثة وفى أواخر سنة تسع وتسعين ومائة انتقل إلى مصر فأقام بها إلى أن توفى سنة ٢٠٤هـ أربع ومائتين.

وفى مصر كان مذهبه الجديد، وكانت مصنفاته الخالدة التى رواها عنه تلاميذه «كالأم» و «الرسالة» وكتاب «السنن»، وكانت له عنايته الفائقة بالسنة حتى غلب على متبعى مذهبه لقب «أصحاب الحديث» وكان أهل بغداد يطلقون عليه «ناصر السنة».

وكان ينهى عن ترك الكتاب والسنة إلى غيرهما من آراء الناس وأهوائهم بقوله: لو علم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

ونظرته إلى أهل الحديث تشير إلى منزلتهم وأهميتهم فهو يقول: إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، جزاهم الله خيرا حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل، ومن شعره فى ذلك:

كــل العلوم ســوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقـه فـى الدين
العلم مــا كــان فيه «قــال حدثنا» ومـاسـوى ذلك وسـواس الشياطين

وكتابه «الأم» جمعه صاحبه البويطى وبوبه الربيع بن سـليمان وهو يشـمل أبواب الفقه كلها، وأما كتاب الرسالة فهو أول كتاب ألف فى أصول الفقه وأصول الحديث.

ويعتبر الإمام الشافعى أول من ألف فى أصول السنة، وقوانين الرواية ومهد للعلماء من بعده طريقة التأليف والتدوين فى علوم الســنة والإمام الشــافعى فى مقدمة المحدثين الذين يــرون صحة الحديث برواية الثقة ولو كان الراوى واحدا، وســاق الأدلة على حجية خبر الواحد ورد على المخالفين فى كتابيه «الأم» و «الرسالة».

ولايحتج الإمام الشــافعى بالأحاديث المرسلة أخذا بالأحوط وخالف فى ذلك الكثير من العلماء قبله.

ولكنه قضى على أن الأحاديث المرسلة التى أرسلها سعيد بن المسيب حسنة لأنه تتبعها فوجدها مســندة، كما يرى أن مراســيل، كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسـلة، أو اعتضدت بقول صحابى أو أكثر العلماء، أو كان المرسـل لو سمى لا يسمى إلا ثقة، فحينئذ يكون مرسله حجة ولا ينهض إلى رتبة المتصل. وأما مراسيل غير كبار التابعين فلا يحتج بهـا، هكذا كانت موازينه العلمية الدقيقة، وعنايته بسنة رسول الله ﷺ.

■■■

من أئمة القرن الثانى

ومن أئمة القرن الثانى الهجرى: الإمام الأوزاعى، هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الشامى، من أتباع التابعين، وكانت له عنايته بالسنة المطهرة، وقال عنه عبد الرحمن ابن مهدى: الأئمة فى الحديث أربعة: الأوزاعى ومالك وسفيان الثورى، وحماد بن زيد، وكانت ولادته سنة ثمان وثمانين من الهجرة وتوفى سنة سبع وخمسين ومائة.

وسمع الأوزاعى الحديث عن جماعات من التابعين كعطاء بن أبى رباح وقتادة ونافع وغيرهم، وروى عنه جماعة من شيوخه،ومن أقرانهم.

وهذا يدل على رسوخ قدمه فى هذا العلم، وعلى تضلعه فيه، ولا غرابة فقد أجمع العلماء على إمامته ومكانته وكثرة حديثه وتمسكه الشديد بالسنة، قال فيه ابن مهدى: ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعى.

وقد جمع الأوزاعى بين العلم والعمل، وبين العبادة والورع، والقول بالحق والزهد، مما جعل علماء عصره يشهدون له بالإمامة.

ومن أئمة هذا القرن كذلك: الحافظ المحدث الإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر فى زمانه، كان كثير الحديث ثقة، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: الليث كثير العلم صحيح الحديث ولد سنة ثلاث أو أربع وتسعين وتوفى سنة خمس وستين ومائة كان من أتباع التابعين.

أخذ الحديث عن عطاء بن أبى رباح، ونافع مولى ابن عمر والزهرى وكثير من التابعين وتابعيهم، وتلقى عنه الحديث هشام بن سعد من شيوخه، وقيس بن الربيع وابن المبارك وكثير من الأئمة.

ومن أئمة هذا القرن كذلك أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ القطان ولد سنة عشرين ومائة، وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة.

وهو محدث من كبار المحدثين، ومن أتباع التابعين أخذ الحديث عن ابن جريج والثورى ومالك وغيرهم وأخذ عنه الحديث أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم.

وقال عنه العلماء: كان من سادات أهل زمانه حفظا وورعا وفقها وفضلا ودينا وعلما.

وهو الذى مهد لأهل العراق رسم الحديث، وأمعن فى البحث عن الثقات وترك الضعفاء، قال عنه أبو زرعة: هو من الثقات الحفاظ.

ومنهم: سـفيان بن عيينة كان من أتباع التابعين ولد سـنة سبع ومائة وتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة.

وقـد أخذ الحديـث عن الزهرى، وعبدالله بـن دينار، وعمرو بن دينـار وغيرهم وأخذ عنه الحديث الثورى وابن جريج والشافعى وأحمد بن حنبل والحميدى وغيرهم، اتفق المحدثون على إمامتـه وفضله وعلو منزلته فى الحديث وحفظه، وهكـذا كان لهؤلاء الأئمة المحدثين جهودهم التى تذكر فتشـكر فى خدمة السـنة المشـرفة، بتدوينهم وحفظهم، وأعمالهم، جمعوا بين العلم والعمل، وبين التحمل والأداء، والتحصيل والتبليغ فمهدوا طريق العلم لمن يأتى بعدهم.

■■■

البحث الثالث:
مناهج تدوين الحديث فى القرن الثالث

أخذ تدوين الحديث فى القرن الثالث الهجرى شكلا جديدا غير الذى كان مألوفا فى القرنين: الأول والثانى، ذلك أن التدوين فى القرن الأول الهجرى «كان الغرض منه حفظ السنة النبوية من الضياع، وصيانتها من أن يتطرق إليها الوضع، فكانت كتابة الحديث آنئذ كتابة فردية، ثم ما لبثت أن دونت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور.

أما فى القرن الثانى فقد بدأ تدوين السنة فيه على يد الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ وكان منهج التدوين يقوم على جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص، فكان لكل باب من أبواب السنة مؤلف خاص به تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه مختلط بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

ثم كانت المرحلة الثانية، من مراحل التدوين فى القرن الثانى، بعد الزهرى حيث قام الأئمة: مالك، وابن جريج، وسفيان الثورى وغيرهم فجمعوا أحاديث الأبواب وضموا بعضها إلى البعض فكانت مصنفا واحدا ومزجوا الأحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ونسخ على هذا المنوال بقية أهل عصرهم. ولم يصلنا من مؤلفاتهم إلا موطأ الإمام مالك ومسند الإمام الشافعى، والآثار للإمام محمد بن الحسن الشيبانى ووصف لبعض المؤلفات الأخرى وأغلب الظن أن العلماء أدمجوها فى مؤلفاتهم بعد ذلك، بجانب حفظها فى القلوب.

وكان الغرض من الجمع فى هذا القرن الثانى هو خدمة التشريع وتسهيل استنباط الأحكام، ومن أمثلة ذلك «موطأ» الإمام مالك الذى يعتبر أول مصنف من المصنفات الصحيحة رتب على الأبواب، قال أبو بكر بن العربى «الموطأ هو الأصل الأول واللباب، وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى»[(١)] وقد عنى الإمام مالك فى كتابه بتدوين الأحاديث القوية، ومكث فى تأليفه وتنقيحه وتهذيبه أربعين سنة، وقد نهج فى تدوين الحديث فى كتابه أن يكون مرتبا على الأبواب فيذكر أحاديث كل باب ثم يتبعها بما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين.

---

(١) تنوير الحوالك ص ٥.

وأمـا فـى القرن الثالث الهجرى فقد أخذ التدوين شـكلا جديدا غـير الذى كان عليه فيما مضى، فقام علماء هذا القرن وأفردوا أحاديث الرسول ﷺ عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعـين، وتصـدى بعضهم لتدويـن الأحاديث التى يوهم ظاهرهـا التناقض، أو يقع فى حسبان البعض أنها غير صحيحة، ويجمع الطعون الواردة عليها ويبين حقيقتها ويرد على تلك الطعون كما تقدم فى الحديث عن ابن قتيبة الدينورى.

وكانت مناهج التدوين فى القرن الثالث ترجع إلى الطرق الآتية:

١- منهج التدوين على المسانيد:

ويتحقـق بجمـع المؤلف ما يروى عـن الصحابى فى باب واحد مـن غير تقييد بوحدة الموضوع، واتسـم هذا المنهج بإفراد الحديث وتجريده من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وجمع كل ما يروى عن الصحابى وإن اختلفت موضوعات الأحاديث، فمثلا يوجد حديث للصلاة بجانب حديث للصوم وهكذا مع الجمع بين الحديث الصحيح وغيره.

فيذكـر صاحب المسـند مثلا أبا بكـر الصديق رضى الله تعالى عنـه ويجمع ما رواه من الأحاديث ثم عمر رضى الله تعالى عنه وهكذا.

وكان منهم من يرتب أسماء الصحابة على القبائل فيقدم بنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب إلى رسـول الله ﷺ فى النسـب، ومنهم من رتبها على السـبق فى الإسـلام فقدم العشـرة المبشـرين بالجنة ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح ثم من أسلم يوم الفتح، ثم أصاغر الصحابة سنا ثم النساء. وممن سار على هذه الطريقة الإمام أحمـد بن حنبل، ومنهم من رتبهم على حروف المعجم كالطبرانى فى المعجم الكبير، ومن طرق التصنيف على المسانيد تصنيفه معللا بأن يجمع فى كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه، فإن معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث وبها يظهر إرسال بعض ما عد متصلا، أو وقف ما ظن مرفوعا وغير ذلك من الأمور المهمة، وقد ألف الحافظ الكبير يعقوب بن شيبة البصـرى المتوفى سـنة ٢٦٢هـ مسـندا معللا غير أنه لم يتم، ولـو تم لكان فى نحو مائتى مجلد. والذى تم منه مسـند العشـرة والعباس وابن مسـعود وعتبة بن غزوان وبعض الموالى وعمـار[١] وطريقة المسـانيد هذه هى التى ابتدأ التأليف عليهـا فى القرن الثالث الهجرى، وأول من قام بذلك هو عبدالله بن موسى العبسى الكوفى ومسدد بن مسرهد البصرى وأسد بن موسى الأموى، ونعيم بن حماد والخزاعى نزيل مصر، ثم انتشر التأليف على هذه الطريقة

(١) تاريخ فنون الحديث ص ١٥.

بعد ذلك بين الأئمة والحفاظ كالإمام أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه، وكان منهم من جمع بين طريقة المسانيد وطريقة الأبواب فى مصنفه كأبى بكر بن أبى شيبة[1].

ومن أعظم المسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل، وهو المراد عند المحدثين على إطلاق، وإذا أرادوا غيره قيدوه باسم صاحبه[2]. وقد يطلق المسند على الكتاب المرتب على الأبواب أو الحروف أو الكلمات لكون أحاديثه مسندة ومرفوعة إلى النبى ﷺ كصحيح البخارى فإنه يسمى (المسند الصحيح) وصحيح مسلم، وسنن الدارمى فإنها تسمى بالمسند، وهناك مسندات لم تصل إلينا كمسند الحارث بن الحارث بن أبى أسامة المتوفى سنة ٢٨٢هـ، ومسند عبد الحميد المتوفى سنة ٢٤٩[3] وكان لهذه الطريقة مزايا وعيوب:

أما مزاياها: فهى تجريد الأحاديث النبوية عن غيرها، فقد أفردت أحاديث الرسول ﷺ بالتدوين، وجردت من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ففى هذه الطريقة إذا نوع من استقلال الحديث عن الفقه.

وأما عيوب هذه الطريقة: فهى صعوبة الوقوف على الحديث فى المسند، لعدم جمع الأحاديث المتناسبة فى موضوعاتها فى باب خاص، كما كان من عيوبها كذلك تعذر معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه، لاحتمال أن يكون كل حديث فى نظر القارئ صحيحا أو ضعيفا. لأنها جمعت بين الصحيح وغيره فلا يستطيع إدراك هذا كله إلا الحافظ المتضلع. وكان الباعث لأصحاب هذه الطريقة على تدوين الأحاديث التى لم تبلغ مرتبة الصحة هو أن الطرق قد تتعدد فيصل الحديث إلى درجة الصحة، كما أنها أيضا صالحة للاعتبار بها وقد تتبين صحة الحديث لنقاده بعد ذلك، ومما هو جدير بالذكر أن العلماء فى هذا العصر كانوا على درجة عالية فى معرفة الصحيح من الأحاديث التى دونوها، أو دونت لهم، ومعرفة الضعيف منها ومعرفة عللها، وكانوا على علم بحال المتون والأسانيد التى فى هذه المسانيد.

٢- منهج التصنيف على الأبواب:

ويقوم على تخريج الحديث على أحكام الفقه وغير ذلك وتبويب الأحاديث وترتيبها موضوعيا وتنويعها أنواعا مختلفة بحيث يجمع المصنف ما ورد فى كل حكم وفى كل باب

(١) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص ٥.

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٦١.

(٣) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ٣٠٢ الدكتور على حسن عبد القادر.

علـى حدة فيجمع الأحاديث المتعلقة بالصلاة فى بـاب والمتعلقة بالصوم فى باب وهكذا، وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على إيراد ما صح فقط كالشـيخين «البخارى ومسـلم» ومنهـم من لم يقتصـر على ذلك كأبى داود والترمذى وكان من مزايا هذه الطريقة سـهولة الحصول على الحكم الشـرعى وغيره من الباب الخاص به، والوقوف على درجة الحديث بيسـر وسهولة بخلاف الطريقة الأولى «طريقة المسـانيد» حيث يصعب فيها الحصول على المطلـوب، وهذا ما دعا الإمام البخـارى إلى أن يتجه فى كتابه إلى الاقتصار على الحديث الصحيح وتبعه الإمام مسـلم سـيرا على منهجه، وكان لهما الفضل فى تمهيد الطريق أمام طلاب الحديث ليصلوا إلى الصحيح من الأحاديث دون عناء، ولعل أقدم كتاب بمثل طريقة التصنيـف علـى الأبواب هو «موطأ» الإمام مالك، غير أنه مزجه بأقوال الصحابة والتابعين بخلاف عمل الشيخين فقد أفردا الحديث عن تلك الأقوال والفتاوى.

وكان الداعـى لهـذه الطريقة هو أن تكون عونا للفقهاء وتسـهيلا لهم فى الوقوف على الأحاديث التى يستنبطون منها أحكامهم أو يستدلون بها أو يجتهدون على ضوئها.

٣- الطريقة الثالثة:

طريقة الجمع لبعض الأحاديث والطعون الموجهة إليها والرد عليها كما سبق بيان ذلك فى الكلام على كتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة.

وبعـد بيان مناهج تدوين الحديث فى القرن الثالث نذكر أمثلة لها، ولنبدأ فى البحث التـالى بكتاب المسـند للإمام أحمد بن حنبل الذى يعد مـن أعظم الكتب المصنفة على هذه الطريقة، وأقدم لذلك بترجمة عن الإمام أحمد صاحب المسند...

■■■

الإمام أحمد بن حنبل

نسبه ومولده:

هـو الإمام الجليل الذى طبقت شـهرته الآفاق، أبو عبـدالله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسـد بن إدريس بن عبدالله بن حيان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسـط ابـن مازن بن شـيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابـة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان الشيبانى المروزى الأصل[1] يلتقى نسبه مع الرسول ﷺ فى نزار بن معد بن عدنان، واشتهر أبو عبدالله بابن حنبل مع أن حنبل جده وليس أباه، لأن جده هذا كان معروفا مشـهورا وعمل واليا على سرخس من أعمال خراسان فى العهد الأموى وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها، على حين كان والده مجاهدا غير مشـهور ومات فى ريعان شـبابه فعرف بابن حنبل نسبة إلى جده، وأما أمه فاسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيبانى كان أبوه قـد نزل بهم وبنى بها وجدها هو عبد الملك الذى كانت قبائل العرب تنزل عليه فيضيفهم ويكـرم وفادتهم وقد نـزل به محمد بن حنبل فزوجه من صفية حفيدته من بنته ميمونة ثم رحل الزوجان إلى خراسان حيث كان الزوج يرابط بمرو ثم عاد بها حاملا إلى بغداد[2] فولد الإمام أحمد فى بغداد مدينة العلم فى ربيع الأول سـنة أربع وسـتين ومائة ١٦٤هـ[3] وقيل إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع[4].

وأرجح الرأى الأول وهو أنه ولد فى بغداد فى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، ومما يؤيد ذلك ما قاله صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل: (سمعت أبى يقول ولدت فى سـنة أربع وستين ومائة فى أولها فى ربيع الأول وجىء بى حملا من مرو وتوفى أبى محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليتنى أمى)[5].

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص ١٦ وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٠.

(٢) أحمد بن حنبل: عبد الحليم الجندى ص ٢١.

(٣) تهذيب التهذيب جـ١ ص ٧٢.

(٤) وفيات الأعيان جـ١ ص ٤٧.

(٥) مخطوطة بقلم صالح بن الإمام أحمد بدار الكتب المصرية.

وهكـذا نـرى أن الإمام أحمد ولد من أبوين كريمين وجاء من أسـرة عربية أصيلة ورث عنها الإيمان الراسخ، والعزيمة القوية، وعزة النفس.

نشأته

فى مدينة العلم بغداد نشأ الإمام أحمد وتربى وحملت أمه تبعات هذه النشأة فهى التى كفلته وقامت برعايته لأن أباه مات فى فجر شـبابه، ولم يرث الإمام أحمد عن أبيه سوى منزل يسـكنه وعقار قليل لا يغل عليه إلا سـبعة عشر درهما كل شهر فكان يعمل بيده إذا أعوزته الحاجة قال عبدالله بن أحمد: حدثنا على بن الجهم قال كان لنا جار فأخرج إلينا كتابا فقال: أتعرفون هذا الخط؟ قلنا: هذا خط أحمد بن حنبل فكيف كتب لك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ففقدنا أحمد أياما ثم جئنا لنسأل عنه فإذا الباب مردود وعليه حلتان فقلت: ما خبرك؟ قال: سرقت ثيابى فقلت له معى دنانير فإن شئت صلة وإن شـئت قرضا فأبى، فقلت: تكتب لى بأجرة؟ قال: نعم فأخرجت دينارا فقال اشتر لى ثوبا واقطعه نصفين يعنى إزارا ورداء وجئنى ببقية الدينار ففعلت وجئت بورق فكتب لى هذا [1].

وعندمـا كان يطلب العلم باليمن مع إسـحق بن راهويه عند عبـد الرزاق وفنيت نفقته عرض عليه إسحق شيئا من المال صلة أو قرضا فامتنع من قبول ذلك وأخذ يشتغل بصناعة النسـيج ويبيعها وينفق منها[2]. وفى هذا ما يدل على عزة النفس وشرفها وعفتها وكرامتها التى يأبى معها أن يأكل إلا من عمل يده، ولم يمد عينه إلى زينة الحياة ولا إلى ثروة المال لأنه اكتفى بثروة العلم التى أغنته عن كل شـىء، من أجل هذا لم يحاول أن ينمى ثروته ولم يتمن الغنى لأن ينابيع نفسـه الطموحة لم تتفتح إلا على الحديث والعلم، بل كان من السـهل عليه أن يكون مـن الأثرياء لو أراد ولكنه رفض ذلك كلـه ورفض عطايا الخلفاء، ومنح الأصدقاء ورفض تولى القضاء حين عرض عليه الشافعى أن يكون قاضيا باليمن عندما كلفه الأمين أن يختار قاضيا لها فاختاره ليسـتعين بذلك على معيشته وليسهل عليه طلب الحديـث من عبد الـرزاق دون تعب أو نصب، ولكنه رفض وأحب أن تكون هجرته لليمن خاصة للحديث لا تشوبها شائبة، وحينما كرر الشافعى العرض عليه قال له (يا أبا عبدالله إن سمعت منك هذا ثانية لم ترنى عندك)[3] ومعلوم أن الإمام الشافعى شيخه، وابن حنبل

---

(١) ترجمة الإمام أحمد للذهبى من كتاب تاريخ الإسلام.

(٢) ترجمة الإمام أحمد من كتاب تاريخ الإسلام الذهبى.

(٣) المناقب لابن الجوزى ص ٢٧١.

يقدره ويجله ولكن نفسه التى ارتقت بالحديث لاترى لها مطمحا فى سواه بل إنه رغب فى تحصيل العلم بجهاد وجلد.

وشق ابن حنبل طريق نشأته فى بغداد وهى يومئذ تزخر بالعلماء والمحدثين والحكماء والفلاسفة وهى حاضرة العلم الإسلامى تموج بالثقافات والفنون، وقد توافرت فى جوانب نشأته عوامل كثيرة كان لها أكبر الأثر فى تكوينه العلمى ومن ذلك:

١- ما فطر عليه من حب للعلم وتحصيل له:

فكان من شدة شغفه به يخرج أحيانا قبل الفجر فتأخذ أمه بثيابه ليبقى ريثما يصبح الصباح.

٢- توجيه أسرته له:

وقد ركزت الأسرة فيه آمالها ليكون عالما ومحدثا يدعو إلى سبيل ربه على بصيرة وهدى، فوجهته أسرته أول ما وجهته إلى حفظ القرآن الكريم ثم إلى علم اللغة والحديث وسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وكانت أمه تحببه فى العلم وتعينه على طلبه فاتفق هذا التوجيه مع ما كانت تصبو إليه همته العالية.

٣- ذاكرته الحافظة:

وقد زكى هذا الاستعداد والتوجيه ذاكرة قوية وجهها إلى حفظ الحديث إسنادا ومتنا وإلى فتاوى الصحابة والتابعين فاستوعب ذلك باستظهار منقطع النظير فهما واستنباطا.

٤- ورعه وتقواه:

وتوج هذه العوامل السابقة ما فطر عليه منذ صغره من الورع والتقوى والثقة والأمانة.

واستفاضت شهادات الأئمة له بالعلم والعمل وكانت تطلعات أهل زمانه إليه ترهص بمكانة عاليه له، يقول الهيثم بن جميل «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه»(1).

حياته العلمية

كان العصر الذى نشأ فيه الإمام أحمد هو عصر التدوين والنضج العلمى ففيه ازدهرت علوم الدين وغيرها فكان معنيا بتدوين ما يسمعه من الأحاديث وآثار الصحابة ولا يكتفى

(١) مرآة الجنان لليافعى جـ٢ ص ١٣٢.

بما أودعه قلبه الحافظ وذاكرته الواعية وإنما كان يدون ما يسمعه. وكان يتلقى علم الفقه والاستنباط من الشافعي وغيره حتى أصبح حافظا للحديث والفقه قال أحمد بن سعيد الرازى: ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أحمد بن حنبل(١) كما كان يحفظ كتب أهل الرأى ولا يأخذ بها.

وكان طبيعيا أن يلم بمثل هذه العلوم الكثيرة لأنها كانت موجودة فى عصره وكان تلقيه من الفقهاء الذين جمعوا بين الحديث والرأى كالقاضى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة. ثم انصرف بعد ذلك إلى المحدثين فتلقى الحديث أولا ببغداد سنة تسع وسبعين ومائة واستمر بها سبع سنين واقتصر فيها على جمع أحاديث علماء بغداد وما يحفظون من الفتاوى، ولازم فى هذه الفترة أحد أئمة الحديث ببغداد نحو أربع سنوات وهو هشيم بن بشير بن حازم الواسطى المتوفى سنة ١٨٣هـ(٢) ولم يكن فى هذه الفترة التى لزم فيها هشيما منقطعا عن غيره ولكنه تلقى عن غيره من الثقات ذوى الشهرة العلمية كعبد الرحمن بن مهدى وأبى بكر بن عياش، وبعد موت هشيم مكث ثلاث سنوات ببغداد يجتهد فى طلب الحديث من العلماء دون تقييد بواحد منهم.

رحلاته

وابتدأ الإمام أحمد رحلاته العلمية فى السنة السادسة والثمانين بعد المائة فرحل المراحل البعيدة وركب المركب الصعب واحتمل خشونة العيش، فرحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ورحل إلى الحجاز خمس مرات، أولاها سنة سبع وثمانين ومائة والتقى فى هذه الرحلة بالشافعي رضى الله عنه كما التقى به فى بغداد كذلك عندما أتى إليه الشافعي.

وكان يستعذب المشقة فى طلب الحديث، لأن تحصيل العلم بصعوبة يكون أشد تمكنا وأكثر حفظا وأبعد عن النسيان، كما أنه كان يخلص نيته فى سبيل الله مستمرا فى دأبه لطلب الحديث حتى بعد أن بلغ درجة الإمامة، ولما سئل فى ذلك قال: (مع المحبرة إلى المقبرة) وكثيرا ما كان يقول (أنا طالب للعلم إلى أن أدخل القبر)(٣).

(١) مقدمة المسند ص ٦٤ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

(٢) المناقب لابن الجوزى ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ٣١.

شيوخه

أخذ الإمام أحمد عن كثير من الشيوخ الأعلام والأئمة الحفاظ منهم هشيم بن بشير والشافعي وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان وإسماعيل بن علية وعبد الرزاق والقاضي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وإبراهيم بن سعد وجرير بن عبد الحميد وعبد الرحمن بن مهدى ومعتمر بن سليمان وغيرهم[1]، ويعتبر هشيم بن بشير هو الشخصية الأولى من شيوخه الذين كان لهم أكبر الأثر فى حياته العلمية فقد ذهب إليه وهو فى السادسة عشرة من عمره ولازمه أربع سنين تكونت خلالها الملكة العلمية فى الحديث ومن شيوخه الذين كان لهم أكبر الأثر فى حياته الإمام الشافعى وقد التقى به حين ذهابه للحج وكان الشافعى يدرس بالمسجد الحرام والتقى به مرة أخرى فى بغداد.

فقهه:

وقد أخذ أحمد عن شيخه الشافعى الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمقابلة بين الأصول واشتقاق الفروع ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد، حتى صار فقيها له مذهبه المعروف، ولا معول إذًا على قول من قال: إنه محدث لا فقيه، وحسبنا دلالة على إمامته فى الفقه ما خلفه من ثروة فقهيه ضخمة أخذها عنه تلاميذه.

وهو وإن لم يدون مذهبه فى كتاب - لأنه كان يكره ذلك - إلا أن أصحابه قاموا بجمع مسائله وتدوينها، ثم انتشرت ثروته الفقهيه فى كتب الحنابلة.

وقد خالف بعض العلماء هذه الحقيقة وأثاروا حول الفقه الحنبلى كثيرا من الكلام، فابن جرير الطبرى قال (إنه رجل حديث لا رجل فقه) ولذا ثار الحنابلة عليه، وابن قتيبة لم يذكره بين الفقهاء واقتصر ابن عبد البر على الأئمة الثلاثة أبى حنيفة ومالك والشافعى فى كتابه «الانتقاء».

والحق أنه فقيه له مذهبه المعروف، ويشهد بذلك الكثير من المتقدمين والمتأخرين ويشهد بذلك الانتخاب التاريخى، وعلى رأس الشاهدين بفقهه الإمام الشافعى الذى قال: «خرجت من بغداد وما تركت بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم من أحمد بن حنبل»[2].

---

(١) تهذيب جـ١ ص ٧٢.

(٢) تهذيب التهذيب جـ١ ص ٧٢.

جلوسه للدرس والإفتاء

تصدى الإمام أحمد للدرس بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، ولم ينصب نفسه للدرس قبل ذلك، وقد جاءه بعض معاصريه يطلب منه الحديث سنة ثلاث ومائتين فأبى أن يحدثهم فذهب إلى عبد الرزاق بن همام باليمن ثم عاد إلى بغداد سنة أربع ومائتين فوجد أحمد قد حدث واستوى الناس عليه(١) ولعل السبب فى امتناعه عن الحديث قبل هذه السن يرجع إلى أنه كان يستحى أن يحدث أو يفتى وبعض شيوخه الذين تخرج على أيديهم وأخذ عنهم مازال موجودا وحيا، ولعله كذلك استحسن أن يجلس للدرس فى هذه السن تأسيا بصاحب السنة المطهرة عليه الصلاة والسلام الذى بعث فى سن الأربعين، وهذه السن غالبا ما تتكامل فيها القوة العلمية. وليس معنى هذا أنه لم يكن يفتى إذا سئل، بل بالعكس فقد كان يرى أن الإعراض عن الإجابة والامتناع عن إرشاد السائلين كتمان للعلم منهى عنه لذا كان يفتى «فى مسجد الخيف» وهو فى الرابعة والثلاثين وغير ذلك.

أما التصدى للتدريس والفتيا رسميا فلم يكن إلا بعد بلوغه سن الأربعين. وكان مجلسه غاصا بطلاب العلم والمسترشدين من تلاميذه ومحبيه وعارفى فضله، وكان له درس عام يعقده بعد العصر فى المسجد وآخر خاص يعقده فى منزله للخاصة من تلاميذه وأبنائه. وكان الوقار والهيبة يسودان مجلسه فلا مجال لغير العلم، وهذا يعطينا صورة صادقة لما كان عليه من حياة جادة وخالصة لخدمة الإسلام وجهاد كبير فى سبيل السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

تلاميذه

وقد روى عنه كثيرون منهم الأئمة الستة: البخارى ومسلم وأبو داود بلا واسطة والترمذى والنسائى وابن ماجة بواسطة، وابنه صالح، وابنه عبدالله.

وقد روى عنه بعض شيوخه كعبد الرزاق والشافعى، وفى هذا ما يدل على مكانته الجليلة وعظمته العلمية.

وروى عنه من أقرانه على بن المدينى ويحيى بن معين. ومما روى عنه كذلك محمد بن يحيى الذهل وأبو زرعة الرازى وأبو القاسم وهو آخر من حدث عنه وغير هؤلاء(٢).

---

(١) المناقب ص ٨٨.

(٢) تهذيب التهذيب جـ١ ص ٧٢.

محنته

جعل الله تعالى ابن حنبل علما يقتدى به وملجأ للمهتدين وهيأته الأقدار لذلك قال فيه ابن حبان: (أغاث الله به أمة محمد ﷺ وذلك أنه ثبت فى المحنة وبذل نفسه)[1].

وقد سبق فى الباب الأول بيان أسباب المحنة ونتائجها وتتمة للترجمة عن حياة هذا الإمام الجليل ألقى بعض الضوء على أهم جوانب العظمة فى حياته وهو موقفه فى «المحنة» هذا الموقف الذى تجلت فيه شجاعته الأدبية واحترامه لاقتناعه السليم آخذا من موقفه ما يوضح القدوة فى حياته. تمسكا بالسنة ومحافظة عليها.

وكانت هذه المحنة فى عهد «المأمون» الخليفة العباسى حين قامت فرقة المعتزلة ورأت أن القرآن مخلوق وكان المأمون متعصبا للمعتزلة فلما زينوا له القول بخلق القرآن اقتنع به وحمل الناس والعلماء عليه، ومعظمهم وافق عن إكراه كما سبق بيان ذلك فى الباب الأول. وحمل لواء المعارضة الإمام أحمد، واستمرت الفتنة حتى عهد المتوكل الذى كان محبا للسنة وأهلها، فرفع المحنة وكتب إلى الآفاق ألا يتكلم أحد فى القول بخلق القرآن. وقد تعرض الإمام أحمد أثناء هذه المحنة الرهيبة لأعنف صنوف الأذى والاضطهاد ولكنه استعذب الأذى فى سبيل دينه وعقيدته حتى أصبح كما قال بشر بن الحارث: (أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر)[2] وهكذا أصحاب العزائم القوية واليقين الراسخ لا تزيدهم الفتن إلا قوة فى الحق وزيادة فى الإيمان، وهذا شأن أولى العزم من الأئمة المتفانين فى سبيل الله، وقد كان من الممكن أن يأخذ بالرخصة فى أوقات البلاء عندما ازدادت به الشدة فيقف موقف التقية ولكنه ليس كذلك، إنه فوق كل هذا، ومكانته بين الناس مكانة الإمام المقتدى به فلو أنه أخذ بالتقية والرخصة فلربما ضل الناس الذين يقتدون به من ورائه دون أن يعلموا أن ذلك تقية، وهذا يعطينا رؤية واضحة لتمسك الإمام بالسنة وحرصه على هداية الناس مهما كلفه ذلك.

كما أن روحه السمح جعله يصفح عن كل من ذكره إلا المبتدع فهو يتسامح فى حق نفسه وإيذائها أما ما يتعلق بالدين والسنة فلا يتسامح فيه يقول: «كل من ذكرنى فى حل إلا مبتدع وقد جعلت أبا إسحق المعتصم فى حل ورأيت الله تعالى يقول ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأمر النبى ﷺ أبا بكر بالعفو فى قصة مسطح، قال أبو عبدالله: العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم فى سببك».

(١) تهذيب التهذيب جـ١ ص ٧٢.

(٢) مقدمة المسند جـ١ ص ١٠٤ تحقيق الاستاذ أحمد شاكر.

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال وجهاد فى سـبيل الحق مشـكور، فاضت روحه إلى بارئها لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة مائتين وإحدى وأربعين رضى الله عنه وجزاه عن السنة خير الجزاء.

وبعد أن طوفنا مع هذا الإمام الجليل فى حياته المشـرقة نقدم لأهم أعماله العلمية التى تمثل طريقة التدوين على المسانيد وهو كتابه «المسند».

مسند الإمام أحمد

المسند فى اصطلاح المحدثين هو الكتاب الذى تذكر فيه الأحاديث عن الصحابة رضى الله عنهم مرتبين على حروف الهجاء أو السوابق فى الإسلام أو شرف النسب[1].

ومنهج الإمام أحمد فى المسـند هو جمع الأحاديث على ترتيب الصحابة الذين انتهى الحديث إليهم عن النبى ﷺ، بحيث يوافق ترتيبهم السوابق الإسلامية، وإن كان الحديث مرسـلا كان على حسـب التابعى الذى انتهى الحديث إليه عن النبى ﷺ فبدأ بأحاديث العشـرة المبشـرين بالجنة ثم أحاديث أهل الحديبية ثم مسـلمة الفتح ثم أحاديث النسوة الصحابيات وهكذا حتى إذا وصل التابعين رتبهم كذلك، فهو يدون أحاديث كل صحابى علـى حـدة دون نظر إلى وحدة الموضوع حتى إذا فرغ مـن حديث واحد من الصحابة أخذ فى حديث غيره فكان مسـلكه فى المسند متجها إلى التدوين والجمع دون نظر إلى التبويب والترتيب الموضعى رغبة منه فى جمع السنة والعمل على نشرها.

وكان الذى حدا به إلى اتباع هذا المنهج فى التدوين هو:

١- أن يصـل إلى أهـل كل إقليم ما لم يصل إليهم مـن الأحاديث، فقد رأى أن بعض الأحاديث فى الكوفة لا يصل إليها أهل بغداد وبعضها فى مكة لا يصل إليها أهل دمشـق وأحاديـث فى دمشـق لا يصل إليها أهل اليمن، وهكذا كان فـى كل بلد محدثون فكيف يحصـل على ما جمع هؤلاء وهؤلاء؟ مـن أجل هذا رأى أنه لابد من الرحلة فى جمع هذه الأحاديث المتفرقة فى البلاد النائية فبدأ بما سمعه ببغداد ثم اتجه إلى الكوفة فالبصرة فمكة فالمدينـة فاليمن وكان فى هـذه البلاد يحرص على لقاء أهل الحديث، ويجمع كل ما صح عنده وبهذا خطا خطوة جديدة فى جمع الحديث وهى الرحلة فكانت سنة لمن جاء بعده، وقد توسع فيها البخارى حتى قام برحلات أكثر منه.

(١) مقدمة تحفة الأحوذى ص ٦٦.

ولئن كانت هناك مدونات قبل المسند إلا أنها إقليمية منها ما هو بالمدينة ومنها ما هو بمصر وهكذا، وأظهر الكتب المدونة قبله «الموطأ» للإمام مالك رضى الله عنه، وكان الغرض منه خدمة الفقه ولذا بوبه تبويبا فقهيا بحيث يسهل الحصول منه على استخراج الدليل الشرعى واستنباط الحكم الفقهى وجاءت أحاديث الموطأ محدودة بالنسبة إلى المسند الذى اشتمل على أربعين ألف حديث بالمكرر، ومن غير المكرر على ثلاثين ألفا.

٢- ما رآه أحمد فى عصره من كثرة الأحاديث التى وضعها أعداء الدين والمغرضون من أصحاب النحل الأخرى حتى عج تيار الموضوعات بصورة أفزعت هذا الإمام الجليل مما جعله يتصدى للقيام بهذا العمل الضخم والمجهود الكبير ليقدم ما صح فى رأيه من أحاديث رسول الله ﷺ.

وقد ابتدأ كتابة الحديث وتدوينه فى مستهل حياته العلمية سنة ثمانين ومائة ١٨٠هـ وعمره ستة عشر عاما، وآثر كتابة الحديث رغم كراهته للكتابة لما رآه من الضرورة حتى لا يختلف الناس فى السنة النبوية. وروى أن عبدالله قال: (قلت لأبى رحمه الله تعالى: لم كرهت وضع كتب وقد علمت المسند؟ فقال: علمت هذا الكتاب إماما إذا اختلف الناس فى سنة عن رسول الله ﷺ رجع إليه)(١).

وقد ظل الإمام أحمد يجمع المسند إلى آخر حياته فى أوراق منفردة وأجزاء متفرقة على نحو ما تكون المسودة وأورد فيه أربعين ألف حديث منها آلاف مكررة من مجموع سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا، كما جمع المسند ثلاثمائة حديث ليس بينه وبين رسول الله ﷺ فيها غير ثلاثة رواة وهى ما تعرف بثلاثية الإسناد.

ومما ينبغى ملاحظته أن هذه السن المبكرة كانت بداية اشتغاله بالعلم وجمع الحديث ولكن تأليف المسند لم يشرع فيه إلا بعد أن جاوز السادسة والثلاثين بعد رجوعه من عند عبدالرزاق بن همام وأخذ ينقحه مدة طويلة بعد ذلك حتى تمت ثقته فيما جمعه فأملاه على خاصته وولديه وابن عمه إسحق، يقول حنبل:

«ما سمعه - أى مسند - منه تاما غيرنا»(٢)

وهذا الرأى هو الذى أرجحه وأراه أقرب إلى الصواب، إذ إن التصنيف فى سن السادسة والثلاثين يكون الباحث فيها أكثر إلماما حيث تنمو المواهب العلمية عنده وكان الإمام أحمد رغم ثقته فيما جمعه ورغم تخير الثقات الذين روى عنهم كان كثير التهذيب والتنفيع فيه

---

(١) خصائص المسند للحافظ أبى موسى المدينى مطبوع مع المسند جـ١ ص ٢٢ تحقيق الأستاذ/ أحمد محمد شاكر.

(٢) أحمد بن حنبل: عبد الحليم الجندى ٢١٣.

وعندما أحس باقتراب أجله جمع أهل بيته وخاصته وأسمعهم المسند كله، ولكنه لم يكمل ما قام به من ترتيب وتهذيب.

وكان المسند أجزاء ومجموعات فى أوراق منفردة لم يرتب إلا على يد ابنه عبدالله كما قام عبدالله هذا فألحق به ما ألحق، وقد رأى الباحثين أن الذى ألحقه عبدالله بالمسند قد زاده عليه عن سماع من غير أبيه، ويرى البعض أنه من سماعه عن أبيه غير أنه لم يكن مما أملاه عليهم عند إملاء المسند[1] وقد فصل الشيخ أحمد البنا الرأى فى هذا فقال: (بتتبعى لأحاديث المسند وجدتها تنقسم إلى ستة أقسام):

١- قسم رواه أبو عبد الرحمن عبدالله ابن الإمام أحمد عن أبيه سماعا منه وهو المسمى بمسند الإمام أحمد وهو كبير جدا يزيد عن ثلاثة أرباع الكتاب.

٢- قسم سمعه عبدالله من أبيه ومن غيره وهو قليل جدا.

٣- وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحدثين بزوائد عبدالله وهو كثير بالنسبة للأقسام كلها عدا القسم الأول.

٤- وقسم قرأه عبدالله على أبيه ولم يسمعه وهو قليل.

٥- وقسم لم يقرأه ولم يسمعه ولكنه وجده فى كتاب أبيه بخط يده.

٦- وقسم رواه الحافظ أبو بكر القطيعى عن غير عبدالله وأبيه رحمهما الله تعالى وهو أقل الجميع فهذه ستة أقسام وكل هذه الأقسام من المسند إلا الثالث فإنه من زوائد عبدالله والسادس فإنه من زوائد القطيعى[2] «أ. هـ».

وهذا الرأى الأخير وهو أن المسند قد اشتمل على هذه الأقسام السابقة وفيه من زيادة ابنه عبدالله ما فيه هو ما أرجحه ومما يدعو إلى الاطمئنان لما نقله عبدالله أن أباه كان يقبل ما يذاكره فيه من الحديث مما لم يسمعه، وإنه لم يكتب عن أحد إلا من أمره أبوه أن يكتب عنه[3] ومن المستبعد أن يستجيز عبدالله لنفسه أن يروى فى المسند عمن لم يأمره أبوه أن يكتب عنه، وهو المعروف بإخلاصه فى طلب الحديث وأمانته العملية وامتداد فضل أبيه إليه مما جعل خاصة العلماء يثنون عليه عاطر الثناء.

---

(١) ابن حنبل: الشيخ أبو زهرة ص ١٦٠.

(٢) مقدمة الفتح الربانى ص ١٩ للشيخ أحمد البنا.

(٣) ابن حنبل: الشيخ أبو زهرة ص ١٦١.

شرطه فى الرواة الذين يأخذ عنهم

نهـج الإمـام أحمد فيما يدونه على الحيطة سـندا ومتنا، فاشـترط ألا يروى عمن كان معروفا بالكذب عنده، كما تخير الثقات الذين يروى عنهم فما كان يروى عن شخص يعتقد أنه ضعيف غير ضابط أو غير فاهم، وإنما يروى عن الثقات العدول الذين اشتهروا بالصدق والتقوى. قال الحافظ أبو موسى: «لم يخرج أحمد فى مسنده إلا من ثبت عنده صدقه دون طعن فى أمانته»(١). وكان يرد بعض الأحاديث إذا عارضها أقوى منها سندا وأوثق رجالا، ويقبـل عن أهل التقـوى الذين لم يعرفوا بالكذب وإن كان فى ضبطهم بعض النقص فيقبل روايتهـم على أن يوازن بينها وبـين غيرها، فإن عارضها ما هو أوثق منها ردها وقد يأخذ بها للاعتبار، يقول: (قد أكتب حديث الرجل للاعتبار به)(٢).

وقـد يكتبها احتياطـا منه ومخافة أن يترك حديثا للرسـول ﷺ يحتمل الصحة وبهذا النهج اشتمل المسند على أكثر الأحاديث النبوية.

■■■

(١) مقدمة المسند تحقيق الاسناد شاكر ص ٣٤.

(٢) ابن حنبل للأستاذ محمد أبى زهرة ص ٢٣٢.

موازنة بين المسند وبين ما قبله
وما بعده من كتب الحديث

أما إذا نظرنا إلى الكتب المصنفة قبل المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف قبله فى القرن الثانى وهو كتاب «الموطأ» للإمام مالك.

وأما بالنسبة لما صنف بعد المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف بعده وهو صحيح البخارى.

أما «الموطأ» فهو كتاب الإمام مالك بن أنس الأصبحى المولود بالمدينة حوالى سنة ٩٣هـ المتوفى سنة ١٧٩هـ وألف كتابه هذا فى أربعين سنة، وقد قيل فى سبب تسميته بالموطأ أنه تجنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس ووطأه للناس كما أشار عليه المنصور فسماه «الموطأ» وذكر السيوطى فى سبب تسميته ما روى عن مالك أنه قال: عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته «الموطأ».

وقد بين ولى الله الدهلوى مكانة الموطأ من كتب السنة فوضعه فى درجة واحدة مع صحيح البخارى ومسلم، وهى الدرجة الأولى فى الصحة، قال: «وكتب[١] الحديث على طبقات فالطبقة الأولى منحصرة فى ثلاثة كتب: الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم» كما بين أثر الموطأ فى كتب أئمة الحديث فقال: «إن الكتب المصنفة فى السنن كصحيح مسلم وسنن أبى داود وما يتعلق بالفقه من صحيح البخارى وجامع الترمذى مستخرجات على الموطأ تحوم حومه وتروم رومه» وقد بين الشيخ محمد الشنقيطى أن مشايخ أصحاب الكتب الستة ومن عاصرهم كالإمام أحمد أغلبهم تلامذة الإمام مالك الذين رووا عنه الموطأ بروايات عديدة قل أن تخلو واحدة عن زيادة تنفرد بها، ولم يتركوا شيئا من أحاديث الموطأ، بل أخرجوها فى مصنفاتهم ووصلوا كثيرا من مرسلاته ومنقطعاته وموقوفاته[٢].

وبذلك يتضح لنا ما للموطأ من أثر عظيم بالنسبة لتلك الكتب، كما يتبين لنا ما لأصحاب هذه الكتب من مقدرة عالية فى وصل المرسل ورفع الموقوف واستدراك ما فات وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده، ومن ذا الذى يستطيع القيام بهذا غير العالم بالسنة

(١) حجة الله البالغة للدهلوى جـ١ ص ١٠٦ط الخيرية.

(٢) دليل السالك إلى موطأ مالك. ومقدمة موطأ مالك للزرقانى.

ورجالها. إذًا فأعمال هؤلاء الأئمة متممة لأعمال الإمام مالك، والإمام أحمد هو أحد هؤلاء الأئمة الذين قاموا بواجبهم، فدون كتابه بعد الموطأ فخرج أحاديثه فى مسنده وكان له هذا العمل الجليل.

وإذا نظرنا إلى الكتب المصنفة بعد الموطأ نجد أن أصحابها قد انتفعوا بمادة الموطأ ومنهجه، ثم أخذوا فى التجديد والابتكار بالنسبة للمنهج وطرق التدوين وشروط الرجال مما يشهد لهم بالجهود العظيمة المشكورة.

ومن الملاحظ أن الإمام أحمد يتفق مع الإمام مالك فى قبول الحديث المرسل وهو الذى سقط من سنده الصحابى ورواه التابعى عن رسول الله ﷺ مباشرة، كما قبل الحديث المنقطع «وهو ما لم يتصل إسناده على أى وجه كان انقطاعه سواء كان الساقط منه الصحابى أو غيره فهو والمرسل واحد، ولكن أكثر ما يستعمل فى رواية من دون التابعى عن الصحابى كمالك عن ابن عمر»(1).

ولعل وجهة كل من الإمام مالك والإمام أحمد فى قبول المرسل والمنقطع أن رواة الحديث مظنة الورع ويبعد أن يزيد واحد منهم على الرسول ﷺ وكذلك فإن المتن فى الغالب لا يتنافى مع ما جاء فى الكتاب والسنة لذا قبل كل منهما المرسل أو المنقطع دون غيرهما.

ويختلف الإمام أحمد فى «مسنده» عن الإمام مالك فى «الموطأ» من ناحيتين:

١- نهج الإمام مالك فى ترتيب الأحاديث على حسب الأبواب الفقهية، بينما نرى الإمام أحمد يرتبها على حسب الرواة.

٢- من ناحية عدد الأحاديث: نرى أحاديث الموطأ محدودة بالنسبة للمسند الذى زادت أحاديثه على أربعين ألف حديث.

أما الموازنة بين المسند وصحيح البخارى فتتلخص فى أمرين:

١- بالنسبة للشروط، فقد تشدد الإمام البخارى فى صحيحه أكثر من الإمام أحمد، حيث اشترط فى الحديث أن يكون متصل الإسناد لا مرسلا، وأن يكون راويه مسلما صادقا غير مدلس، عدلا ضابطا سليم الذهن والاعتقاد، معاصرا لمن روى عنه، وثبت لقاؤه به.

٢- من ناحية الترتيب: كان ترتيب المسند مغايرا لترتيب صحيح البخارى فترتيب المسند على حسب الرواة، وترتيب صحيح البخارى على حسب الموضوعات، وهذا الترتيب هو السبب فى تقطيع البخارى للحديث فى أبواب مختلفة، أما مسند أحمد فقد سلم من

(1) تدريب الراوى ص ١٢٧.

ذلـك إلا أنـه وقع فى عيب آخر هو صعوبة الوصـول إلى الحديث المطلوب فكانت طريقته شاقة على الباحثين، لأن الباحث لايصل إلى مطلوبه فيه إلا بعد جهد كبير، فمثلا إذا أراد الوصول إلى معرفة حديث فى حكم من أحكام الفقه فعليه معرفة راويه، ثم يسـتعرض كل مـا رواه هـذا الصحابى حتى يصل إلى الحديث المطلوب فإذا لم يكن يعرف راوى الحديث فإن الجهد يكون أكثر، إذ عليه حينئذ أن يستعرض قراءة الكتاب من أوله حتى يصل إلى ما يريد.

وكان عذر الإمام أحمد فى سلوك هذه الطريقة آنذاك يتلخص فى أمرين:

الأول:

أنه جعل كل هدفه من تأليف المسند شيئا واحدا وهو جمع الأحاديث فقط ولم يضع فى حسبانه فكرة الترتيب والتبويب ولا مسائل الفقه والأحكام ولذا جاء ترتيبه حسب الرواة.

الثانى:

إن هذه الطريقة التى جمع بها المسـند (كانت سائغة ميسورة لأهل القرن الثالث الذين عظمـت عنايتهم بحفظ الحديث وضبطه ومذاكرته ودرسـه حتـى كان الواحد منهم يحفظ المسـند الكبير كما يحفظ السـورة من القرآن الكريم ويعرف صحيحه من سـقيمه وغثه من ثمينه)[1] أ. هـ.

عناية العلماء بالمسند

وقد تولى عبدالله بن الإمام أحمد إخراج المسـند إلى الناس وهو الذى انتهج هذه الطريقة فى روايته للمسند حين قام يجمع المتناثر الذى جمعه أبوه ورتبه وهذبه وتسلسلت من بعده الروايات عن الثقات إلى أن حفظته الأجيال وتلقته الأمة بالقبول. يقول الذهبى فى نقد هذا الترتيب «ولو أنه حرر ترتيب المسند وقربه لأتى بأسنى المقاصد، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه ويبوب عليه ويتكلم عن رجاله ويرتب هيئته ووضعه فإنه محتو على أكثر الحديث النبوى. وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه»، وقد قام بترتيب المسند الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله ابن المحب الصامت فرتبه على معجم الصحابة ورتب الـرواة كذلك وأخذ هذا الكتـاب أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير وأضاف إليه أحاديث الكتب السـتة وكتاب ابن كثير اسمه «جامع المسـانيد والسنن» وجمع غريبه أبو عمر محمد ابن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥هـ واختصره عمر بن على المعروف بابن الملقن المتوفى سنة

(١) الحديث والمحدثون ص ٣٧٠.

٣٠٥هـ ورتبه على الأبواب الفقهية على بن حسين بن عروة، وأبو الحسن على بن زكنون الحنبلى سنة ٨٣٧هـ وشرحه كذلك بعض الحفاظ الأصبهانيين والحافظ ناصر الدين بن زريق وبعض من تأخر عنه[1].

وقيض الله تعالى للمسند عالما جليلا هو المرحوم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتى وانتهى من ترتيبه عام ١٣٥١هـ. ورتبه وبوبه حسب الموضوعات ووافته منيته بعد أن أخرج واحدا وعشرين جزءا وسمى هذا الكتاب «الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى» ثم شرح الكتاب وخرج أحاديثه فى كتاب آخر معه سماه «بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى» وقسمه سبعة أقسام:

١- التوحيد وأصول الدين.

٢- الفقه.

٣- التفسير.

٤- الترغيب.

٥- الترهيب.

٦- التاريخ وفيه السير والمناقب.

٧- القيامة وأحوال الآخرة.

وميز بين الأحاديث التى هى أصل المسند والأحاديث التى هى من زيادات ابنه عبدالله وأبى بكر القطيعى.

كما أخرج كتاب المسند إخراجا آخر عالم محقق هو الشيخ أحمد شاكر رحمه الله وقام بعمل فهارس علمية ولفظية تعين الباحث على الاطلاع على مواضع الأحاديث، والفهارس اللفظية وفهارس الأعلام والجرح والتعديل والأماكن وغريب الحديث أما الفهارس العلمية فهى فهارس الأبواب والمسائل التى ترشد إلى ما جاء فى المسند من المعانى وقد رقم الأحاديث فأصبح ميسورا لكل قارئ أن يجد الباب الذى يقصده والمعنى الذى يريده، ولم يخرج الأحاديث كلها وإنما عنى ببيان درجة الحديث، فيذكر صحة الحديث إن كان صحيحا ويبين سبب الضعف إن كان ضعيفا. وصدر الكتاب ببحوث سماها طلائع الكتاب تضمنت ما قاله بعض الأئمة فى المسند. كما ذكر ترجمة للإمام أحمد نقلها من كتاب تاريخ الإسلام للحافظ الذهبى. وقد أكمل منه خمسة عشر جزءا ثم لحق بربه، رحمه الله رحمة

(١) كشف الظنون جـ٢ ص ٢٦٥، الرسالة المستطرفة ص ١.

واسعة. ثم أكمل من بعده فضيلة الدكتور الحسينى هاشم رحمه الله رحمة واسعة من الجزء السادس عشر حتى الجزء التاسع عشر، ثم اشترك معه الدكتور أحمد عمر هاشم فى الجزء العشرين والحادى والعشرين، وهو بصدد إكمال بقية الأجزاء حيث اكتمل الجزء الثانى والعشرين.. ثم بقية الأجزاء إن شاء الله تعالى.

درجة أحاديث المسند:

اختلف العلماء فى درجة أحاديث المسند على أقوال منها:

أولا: ذهب بعضهم: إلى أن كل ما فى المسند صحيح يحتج به، وإلى هذا يشير كلام الحافظ أبى موسى المدينى: «وهذا الكتاب أصل كبير، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث، انتقى من حديث كثير، ومسموعات وافرة فجعله إماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأً ومستندا» وما قاله الإمام أحمد: «فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه، فإن كان فيه وإلا فليس بحجة»[1].

واستند أصحاب هذا الرأى إلى حيطة ابن حنبل فيما يرويه سندا ومتنا كما سبق. وإذا نظرنا إلى قول الإمام أحمد السابق نرى أنه ليس صريحا فى أن كل ما فيه حجة، ولكنه صريح فى أن ما ليس فيه ليس بحجة، هذا مع أن هناك أحاديث صحيحة مخرجة فى الصحيحين وليست فيه، منها حديث عائشة فى قصة أم زرع[2] وقد أجاب بعض العلماء على ما فات المسند من الأحاديث الصحيحة والمخرجة فى الصحيحين بعدة أجوبة منها:

١ – إن الإمام أحمد جمع المسند فى أوراق مفردة، وفرقه فى أجزاء منفردة وبعد أن توفى قام ابنه فألحق به ما يشاكله، وضم إليه من بعض مسموعاته ما يماثله، فسمع القطيعى ما ظفره به منها، وبقى كثير من الأحاديث فى الأوراق والأجزاء لم يظفر بها، فما لم يوجد فيه من الأحاديث الصحاح فهو من هذا القبيل[3].

٢ – وقال الحافظ الذهبى: «هذا القول منه على غالب الأمر وإلا فلنا أحاديث قوية فى الصحيحين والسنن والأجزاء ما هى فى المسند»[4] أ. هـ. فيكون القول محمولا على الغالب والأكثر.

(١) مقدمة المسند ص ٢١ تحقيق الأستاذ شاكر.

(٢) تدريب الراوى ص ١٠٠.

(٣) مقدمة المسند ص ٢٠ بتحقيق الأستاذ شاكر.

(٤) الباعث الحثيث ص ١٨٦.

٣ – أو أنــه يريــد بقوله (... فإن كان فيه وإلا فليس بحجــة) يريد أصول الأحاديث بمعنى: أنه ما من حديث فى الغالب، إلا وكان له أصل فى المســند وما لم يوجد فيه من حديث صحابى معين يكون معناه موجودا من حديث صحابى آخر. والحق أنه كتاب عظيم تحرى فيه صاحبه جمع السنة، والرجوع إليه إذا اختلف الناس. وأرجح أن القول السابق محمول على غالب الأمر، إذ لا يحيط أحد بســنة الرســول ﷺ جميعها لما ســبق بيانه من بعض الأحاديث المخرجة فى الصحيحين والتى لم توجد فى المســند. كما أن المحدثين قد يختلفون فى درجة الحديث كاختلاف الفقهاء فى الأحكام الشرعية الظنية.

ثانيــا: وذهب قوم إلى أن فيه الصحيح والضعيف والموضوع، ومن هؤلاء: ابن الجوزى، فقد ذكر فى موضوعاته تسعة وعشرين حديثا من مسند الإمام أحمد، وحكم عليها بالوضع أيضا ورد على من قال: إن أحمد شــرط الصحيح فى مســنده، وبين أن المراد بكلام الإمام أحمد هو أن ما ليس فى المسند بحجة لا أن جميع ما فيه حجة.

ثالثا: وذهب قوم إلى أن فى المســند الصحيح والضعيف الذى يقرب من الحســن وممن ذهب إلى ذلك الذهبى وابن حجر والسيوطى، وتعقبوا ابن الجوزى والعراقى فيما زعماه من وجود أحاديث موضوعة، فذكروا لها شــواهد ودافعوا عنها، ولم يسلم ابن حجر إلا بثلاثة أو أربعة أحاديث لا أصل لها، منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفا، وقيل فى الاعتذار عنه: أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهوا، أو ضرب وكتب من تحت الضرب. وهذا هو الحديث المذكور:

قال الإمام أحمد: أنا عبد الصمد بن حسان، أنا عمارة عن ثابت، عن أنس قال: بينما عائشــة فى بيتها سمعت صوتا فى المدينة فقالت: ما هذا؟، فقالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشــام تحمل كل شــىء، قال: وكانت سبعمائة بعير فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشــة سمعت رســول الله ﷺ يقول: «قد رأيــت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا»، فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلنها قائما، فجعلها فى سبيل الله عز وجل بأقتابها وأحمالها. وهذا الحديث أورده ابن الجوزى فى الموضوعات وقــال: قال أحمد: هذا الحديث كــذب منكر، قال: وعمارة يروى أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم الرازى: عمارة بن زاذان لا يحتج به. انتهى.

وقـد أجاب عن هـذا الحديث ابن حجر بقوله: «حديث[1] أنس عن عائشـة فى قصة عبـد الرحمـن بن عوف لم ينفرد به عمارة الراوى المذكور فقـد رواه البزار من طريق أغلب ابـن تميـم عن ثابت البنانى بلفظه: أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف والذى نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبوا. قلت: «وأغلب» شبيه بعمارة بن زاذان فى الضعف لكن لم أر من اتهمه بالكذب. وقد رواه عبد بن حميد فى مسنده أتم سياقا من رواية أحمد. قال عبد بن حميد فى مسـنده: حدثنا يحيى بن إسـحق ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر آخى النبى ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له: إن لى حائطين فاختر أيهما شـئت، فقال: بارك الله لك فى مالك ما لهذا أسـلمت دلنى على السـوق قال: فدله فكان يشترى السـمنة والإقط والإهاب فجمع فتزوج فأتى النبى ﷺ فقال له: بارك الله لك أولم ولو شاة قال: فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشـة: ما هذه الرجـة فذكر الحديث. وفيه من النكارة أيضا إخـاء عبد الرحمن لعثمان والذى فى الصحيحين أنه سعد بن الربيع وهو الصواب والذى أراه أنه يكفينا شهادة الإمام أحمـد بأنـه كذب وأولى ما يحمل عليه أن نقول هو من الأحاديث التى أمر الإمام أحمد أن يضـرب عليها فإما أن يكون الضرب ترك سـهوا وأما أن يكون بعض من كتبه عن عبدالله كتب الحديث وأخل بالضرب والله أعلم» أ.هـ.

ويـرى ابن تيمية: أن فى بعض أحاديث المسـند ضعفا من حيث الاصطلاح، ولكنه لا يسـلم أن فيه موضوعا برواية أحمد، وما يظهر أنه موضوع فهو من زيادات القطيعى راويه وقد ألف ابن حجر كتابه «القول المسـدد فى الذبِّ عن المسـند» وسرد فيه الأحاديث التى جمعها العراقى وحكم عليها بالوضع، وهى تسـعة، وأضاف إليها خمسـة عشـر حديثا أوردها ابن الجوزى فى الموضوعات وهى فيه وأجاب عنها حديثا حديثا، ويقول السيوطى: «وقد فاته أحاديث أخرى أوردها ابن الجوزى وهى فيه، وجمعتها فى جزء سميته (الذيل الممهد) مع الذب عنها. وعدتها أربعة عشر حديثا»[2].

وقـد أجاب ابن حجر – فى دفاعه عن الأحاديـث التى أوردها ابن الجوزى – إجابة إجمالية أولا، ثم تناول الأحاديث بعد ذلك بالتفصيل.

---

(١) القول المسدد ص ٢٥.

(٢) تدريب الراوى ص ١٠١.

أما الإجابة الإجمالية:

فبين فيها أن الأحاديث المذكورة «ليس فيها شيء من أحاديث الأحكام فى الحلال والحرام والتساهل فى إيرادها مع ترك البيان بحالها شائع، وقد ثبت عن الإمام أحمد وغيره من الأئمة أنهم قالوا: إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا وهكذا حال هذه الأحاديث»[1].

وأما الإجابة التفصيلية:

فلنضرب مثلا عليها بحديث من الأحاديث التى كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر، بل أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر نا أفلح بن سعيد نا عبدالله بن رافع، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن طالت بك مدة أوشك أن ترى قوما يغدون فى سخط الله عز وجل ويروحون فى الفتنة فى أيديهم مثل أذناب البقر»[2] ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات بإسناد المسند أيضا، ونقل عن ابن حبان أنه قال: «إن هذا الخبر باطل»، وأفلح «كان يروى عن الثقات الموضوعات» وهذا الحديث أخرجه مسلم عن جماعة من مشايخه عن أبى عامر العقدى بهذا وأخرجه من وجه آخر، وقال ابن حجر: ولم أقف فى كتاب الموضوعات لابن الجوزى على شىء حكم عليه بالوضع وهو فى أحد الصحيحين غير هذا الحديث، وإنها لغفلة شديدة منه، «وأفلح» المذكور يعرف بالقبائى مدنى من أهل قباء ثقة مشهور، وثقه ابن معين وابن سعيد، وقال ابن معين أيضا والنسائى: لا بأس به، وقال أبو حاتم شيخ صالح الحديث. وأخرج له مسلم فى صحيحه. وقد روى عنه عبدالله بن مبارك، وطبقته. ولم أر للمتقدمين فيه كلاما إلا أن العقيلى قال: لم يرو عنه ابن مهدى وقال ابن حجر: وليس هذا بجرح، وقد غفل ابن حبان فذكره فى الطبقة الرابعة من الثقات، وقد أخطأ ابن الجوزى فى تقليده لابن حبان فى هذا الموضوع خطأ شديدا، وغلط ابن حبان فى «أفلح» فضعفه بهذا الحديث وعقبه بأن قال: هذا بهذا اللفظ باطل، والمحفوظ عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ: «اثنان من أمتى لم أرهما: رجال بأيديهم سياط مثل أذناب البقر ونساء كاسيات عاريات»، وتعقب الذهبى فى الميزان كلام ابن حبان هذا

(١) القول المسدد لابن حجر ص ١١.

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند جـ٢ ص ٢٠٨ رقم ٨٠٥٩ والإمام مسلم فى صحيحه جـ٢ ص ٣٥٥.

فقال: «حديث أفلح حديث صحيح غريب ورواية سـهيل شاهدة له وابن حبان ربما جرح الثقة» وقد صححه من طريق أفلح أيضا الحاكم فى المستدرك وصححه من طريق سـهيل عـن أبيـه عن أبى هريرة قال حدثنا أبو حيثمة، ثنا جرير عن سـهيل عن أبيه، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»، وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن عبدالله بن نمير ثنا زيد بن الحباب حدثنا أفلح بن سعيد فذكره ولفظه: «يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخطه» قال البيهقى رواه مسلم عن محمد بن عبدالله بن نمير وهو كما قال: قال ابن حجر: «فلقد أساء ابن الجوزى لذكره فى الموضوعات حديثا من صحيح مسلم[1] أ.هـ».

وهذا الذى قدمناه نموذج لإجابة ابن حجر التفصيلية على الأحاديث التى أوردوها بين الموضوعات وقد رأينا إلى أى حد كان ابن حجر موفقا فى دفاعه.

وخلاصة الآراء:

١- أن العلماء يقررون فى شبه اتفاق على أن فى المسند الضعيف لأن الإمام أحمد كان يروى عمن لا يعرف بالكذب، ويروى عمن ضعف حفظه ويعتضد به.

٢- يرى البعض أن المسـند ليس فيه موضوع قط وممن ذهب إلى ذلك الحافظ أبو موسى المدينى وأبو العلاء الهمدانى ونحوهما.

٣- ويرى البعض أن فى المسـند الأحاديث الموضوعة كأحاديث فضائل مرو وعسـقلان وغـير ذلك. وهؤلاء يختلفون: هل هى برواية أحمد أم لا؟ فيرى البعض: أن المسـند ليس فيه موضوع برواية أحمد، وإنما هو من زيادة القطيعى، ويرى البعض الآخر أن فى المسـند الموضوع برواية أحمد أو ابنه وممن ذهب إلى ذلك العراقى وقد رد عليه ابن حجر كما سبق.

والـذى أرجحـه هو أن بعض الأحاديث كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر، وهى لا تصـل إلى حد أن يحكم عليها بالوضع، وأن البعض الآخر تكلف الحافظ فى الرد عليهما، ويدل على ذلك رجوعه فى الرأى وحكمه بالوضع على بعض الأحاديث.

---

(١) القول المسدد ص ٣٣.

ويمكـن التقريب بين الأراء فى درجة أحاديث المسـند بحيث لا يكون هناك اختلاف كبير بينهما وذلك بإرجاع الرأيين: الأول والثانى إلى الثالث.

فمن قال بأن فى المسـند بعض الأحاديث الموضوعة نظر إلى زيادات القطيعى وعبدالله، ومـن قال: بأن ما فيه صحيح يحتج به لايتنافـى قوله مع وجود الضعيف، لأن الضعيف دائر بين الحسن لذاته والحسن لغيره.

وإذا كنا قد وقفنا الآن على النقد القديم، فلننظر بعد ذلك إلى النقد الحديث الذى وجه إلى المسند، ثم نرد عليه...

الطعن فى مسند الإمام أحمد بن حنبل والرد عليه

وقد طعن (أبو رية) فى مسـند الإمام أحمد وغيره من كتب المسـانيد، وذلك فى كتابه: أضـواء علـى السـنة المحمدية، حيث يقول فـى صفحة «٣٢٢»: (وإننـا لم نعرض لهذا الكتاب – يعنى مسند الإمام أحمد – ولا إلى غيره من كتب المسانيد بالتفصيل وهى كثيرة، إلا لأن العلمـاء قد تكلموا فيها، وقضوا بأنه لا يسـوغ الاحتجـاج بها ولا التعويل عليها، على أننا قد رأينا أن نتكلم عن مسـند أحمد الذى هو أشـهرها، لنبين للمسلمين حقيقته، ونكشـف عن درجته) وفى خلال عرضه للدليل على دعواه الزائفة ينقل كلام الشـيخ طاهر الجزائرى فى كتاب (توجيه النظر) حيث قال: «وكتب المسـانيد هى ما أفرد فيها حديث كل صحابى على حدة من غير نظر للأبواب وقد جرت عادة مصنفيها أن يجمعوا فى مسند كل صحابى ما يقع لهم من حديثه صحيحا أو سقيما، ولذلك لا يسوغ الاحتجاج بما يورد فيها مطلقا»[1] أ.هـ.

الإجابة على هذا الطعن

والحق إن كتب المسـانيد دون كتب السـنن فى الرتبة، وهذا لا خلاف فيه، ولا ينكره أحـد ولكن دعـوى أن الأئمة لا يحتجون بما فى كتب المسـانيد، ولا يعلون عليها، فهذا هـو الجهل الفاضح، والظلـم بعينه، والتجنى، على هذه الكتب تجنيا لا يرضاه ذو عقيدة صحيحة.

ومن الواضح أن قولهم: (لا يحتج بما ورد فيها مطلقا) مراد به أنه لا يحتج بكل حديث منهـا لأنها تجمـع بين الصحيح والحسـن والضعيف، والعلماء إنمـا يحتجون بالصحيح

(١) توجيه النظر ص ١٥٣.

والحســن دون الضعيف ولهــذا كان الواجب البحث عن درجة أحاديث المســند، والتأكد مــن صلاحيتها للاحتجــاج. ومن المعلوم أن معظم الأحاديث التى دونت فى مســند الإمام أحمد مما يصح الاحتجاج بها، لأنها إما صحيحة، أو حســنة، وفيه أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من كتب الســنة المعروفة، ومما يشهد لمسند الإمام أحمد بالفضل وأنه اشتمل على كثير من أحاديث الصحيحين ما قاله الحافظ الفقيه محمد اليونينى حين سئل: أأنت تحفظ الكتب الســتة؟ فقال: أحفظها وما أحفظها، فقيل له: كيف هذا؟ فقال: «أنا أحفظ مســند أحمد وما يفوت المسند من الكتب الستة إلا قليل فأنا أحفظها بهذا الوجه»[1] نعم، فى المسند أحاديث ضعيفة، بل موضوعة على ندرة إلا أن أغلب تلك الأحاديث إنما هى من زيادات عبدالله ابن الإمام، وزيادات أبى بكر القطيعى راويه، وهى مع ذلك قليلة، وفــى الفضائل فقط لا فى الأحكام، ولهذا فهى لا تؤثر على درجة المســند، ولا تنقص من قيمته الجليلة فى نفوس الأئمة والعلماء، وبهذا يرد ما أثير حول المســند من دعاوى زائفة تــدل على خبث نية أصحابها وســوء طويتهم، وتتضح لنا درجة المســند من الصحة وأنه مرجــع وثيــق لأصحاب الحديث كما قال الإمام الحافظ الكبير أبو موســى المدينى: (وهذا الكتاب – أى المسند – أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير وموسوعات وافرة فجعله إماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأ ومستندا). أ.هـ.

منهج الإمام أحمد فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة

كان الإمــام أحمــد لا يروى فى المســند عمن عــرف بالكذب وإنما يــروى عن الثقات العدول ولا يرد حديثا لنقد فى متنه إلا إذا عارضه حديث غيره أقوى منه. ومن المعلوم أن الأحاديث فى عصر الإمام أحمد وقبل الترمذى تنقسم إلى أحاديث:

١– صحيحة تتوافر فيها شروط الصحة فتكون مقبولة.

٢– وإلى أحاديث ضعيفة لا تتوافر فيها هذه الشروط وعلى ذلك يدخل فى الفرع الثانى الحديث الحسن كما يدخل الحديث الضعيف الذى ارتفع إلى درجة الحسن بتعدد الطرق.

قال ابن تيمية فى ذلك: أول من عرف أنه قســم الحديث إلى صحيح وحســن وضعيف أبو عيســى الترمذى ولم تعرف هذه القســمة عن أحد قبله وقد روى عن الإمام أحمد أنه كان يعمــل بالحديــث الضعيف ويجعل منزلته فى العمل بعد فتاوى الصحابة وأن المســند فيه الأحاديــث الضعيفة وأن الإمام أحمد كان يقبل الرواية على الضعفاء إذا لم يعرفوا بالكذب فيروى عمن لم يشتهر بالضبط كابن لهيعة وغيره ممن لا يكذبون، ويعرفون بالصلاح.

(١) مقدمة الفتح الربانى ص ٩ للأستاذ عبد الرحمن الساعاتى.

وكان الضعيف عندهم نوعين: ضعيف ضعفا لا يمنع العمل به وهو يشبه الحسن فى اصطلاح الترمذى، وضعيف ضعفا يوجب تركه وهو الواهى. وقبل بيان منهج الإمام أحمد فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة أبين مذاهب العلماء فى العمل بها:

١- مذهب كبار الحفاظ والمحدثين كالبخارى ومسلم وهو أنه لا يعمل بالأحاديث الضعيفة مطلقا لا فى الأحكام ولا للاعتبار والمواعظ ووجهتهم فى ذلك: أن أمور الدين لا تأخذ إلا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام الصحيحة أما الأحاديث الضعيفة فغير صحيحة والأخذ بها هو زيادة فى الشرع على غير علم بل إنه يعتبر منهيا عنه أخذا من قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فالخير إذًا أن يقول الإنسان برأيه فيما لم يرد فيه نص حتى إذا اعتراه خطأ كان منسوبا إلى رأيه لا إلى الرسول ﷺ ولذا لم يأخذوا بالضعيف من الأحاديث إلا إذا رويت من وجوه متعددة ترفعها إلى درجة الحسن.

٢- مذهب بعض علماء الفقه والأثر: وهو أنه يعمل بالأحاديث الضعيفة فى الفضائل: روى عن عبد الرحمن بن مهدى كما أخرجه البيهقى إذا روينا عن النبى ﷺ فى الحلال والحرام والأحكام شددنا فى الأسانيد وانتقدنا فى الرجال وإذا روينا فى الفضائل والعقاب سهلنا فى الأسانيد وتسامحنا فى الأحاديث. وروى مثل هذا القول عن الإمام أحمد، وبذلك تتضح وجهة نظرهم فى أن الحديث الضعيف إذا لم يترتب عليه حكم بالحلال والحرام يتساهلون فيه.

٣- مذهب الإمام أحمد وأبى داود وهو العمل بالحديث الضعيف إذا لم يكن فى الباب حديث صحيح أو حسن أو فتوى صحابى. هذا وقد اشترط الحافظ ابن حجر فى الأخذ بالأحاديث الضعيفة ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون الضعيف بسيطا غير شديد وهذا الشرط متفق عليه.

الثانى: أن يدخل تحت أصول معمول بها حتى لا يكون غريبا عن قواعد الإسلام.

الثالث: ألا يعتقد ثبوته بل يحتاط للحديث لاحتمال أن تصح نسبته إلى النبى ﷺ.
تلك هى آراء العلماء فى العمل بالحديث الضعيف وهذا ما اشترطه الحافظ ابن حجر فى الأخذ بها.

أما الإمام أحمد بن حنبل فإنه من الذين يذهبون إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة ويقدمونها على الرأى إلا أنه لا يجعل الحديث الضعيف فى مرتبة الصحيح وإنما يؤخره عن فتوى الصحابى فيقول فى هذا: لا تكاد ترى أحدا ينظر فى الرأى إلا وفى قلبه غل والحديث الضعيف أحب إلى من الرأى. وقال عبدالله: سألته عن الرجل الذى يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يدرى صحيحه من سقيمه وصاحب رأى فمن يسأل؟ قال يسأل صاحب الحديث ولا يسأل صاحب الرأى[1].

ولقد دون الإمام أحمد فى مسنده ضمن ما دون بعض الأحاديث الضعيفة لأنه أراد من المسند أن يكون جامعا لكل ما روى عند أهل عصره فكان يدون كل ما يتلقاه إذا لم يثبت أن هناك ما يخالفهم متقيدا فى ذلك بالشروط التى اشترطها العلماء فى الأخذ بالحديث الضعيف. وقد قرر ابن تيمية أن الحديث الضعيف فى نظر أحمد والذى يقبله هو من قبيل الضعيف الذى يرتفع إلى مرتبة الحسن أن أحمد كان يعتبر الضعيف قسيم الصحيح ولا يعتبر الحسن إلا ضعيفا ويقبله بهذا الاسم، ويقول فى ذلك: وأما قولنا إن الحديث الضعيف خير من الرأى فليس المراد به الضعيف المتروك ولكن المراد به الحسن، وكان الحديث فى اصطلاح من قبل الترمذى إنما صحيح وإما ضعيف، والضعيف نوعان ضعيف متروك وضعيف ليس بمتروك، وتكلم أئمة الحديث بهذا فلما جاء من لا يعرف إلا اصطلاح الترمذى فسمع قول بعض الأئمة الحديث الضعيف أحب إلى من القياس فظن أنه يحتج بالحديث الذى يضعفه مثل الترمذى (أ. هـ). فرأى ابن تيمية إذًا: أن الضعيف الذى يقبله أحمد هو من القسم المسمى بالحسن إلا أن فى المسند من الأحاديث ما ليس محكوما عليه بأنه من قبيل الحسن بل من قبيل الضعف حتى فى اصطلاح الترمذى ومن بعده، ومثل ذلك إنما يقدمه الإمام أحمد احتياطا فى الدين لاحتمال صحة نسبته إلى النبى ﷺ، ذلك أنه حين لا يجد حديثا صحيحا فى موضوع الفتوى وليس أمامه غير الحديث الضعيف يرى نفسه بين حرجين: فهو إما أن يفتى برأيه وهذا ما يكرهه، ولا يلجأ إليه إلا فى الضرورة القصوى رجاء أن يكون الرأى صوابا، أما إن أخطأ فنسبة الخطأ تعود عليه، وإما أن يأخذ بضعيف الأخبار فيكون فيه مدعاة للحكم بصحة نسبته فيثبت إلى الرسول ﷺ قولا لم يثبت

(١) ابن حنبل: الأستاذ أبو زهره ص ٢٣٩.

بطريق سليم، إذا كان يتخذ موقفا وسطا فعمل بموجب الحديث الضعيف حيطة فى الدين واحتمالا للصدق دون أن يحكم بصحة نسبته، ويقول فى ذلك: «إنه ضعيف وإنه مع ضعفه أحب عندى من الرأى»[1].

■■■

(١) مقدمة الفتح الربانى ص٩.